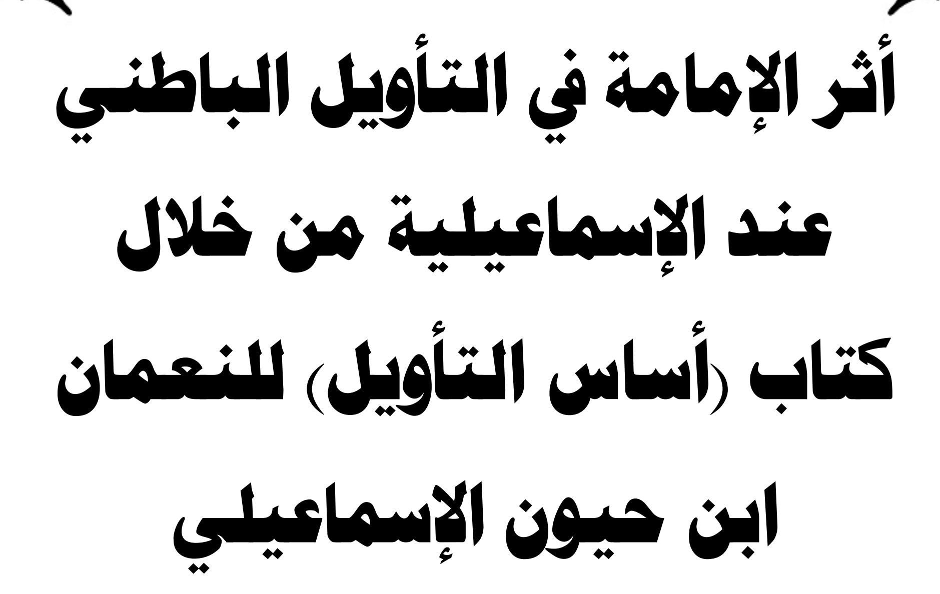


أثر الإمامة في التأويل الباطني عند الإسماعيلية من خلال كتاب (أساس التأويل) للنعمان ابن حيون الإسماعيلي

د. يوسف بن علي بن عبد الله الطريف

أكاديمي سعودي، أستاذ بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم

ملخص البحث

تعمد هذه الدراسة إلى إظهار أثر معتقد الإمامة عند الإسماعيلية في (التأويل الباطني) وإلى أي مدى يقف هذا التأويل من ظاهر النص القرآني؟ وذلك من خلال إجراء تطبيقي على كتاب: (أساس التأويل) للداعي قاضي قضاة الدولة العبيدية: ابن حيون، النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت٣٦٣هـ)؛ إذ يُعَدّ هذا الكتاب أحد أهم مصادر الفكر الإسماعيلي إلى يومنا هذا. واقتضت طبيعة الدراسة أن يكون منهجها استقرائيًا نقديًا، واشتملت على: تمهيد يعِّرف بالكتاب وبمؤلفه، وفصلين؛ الأول: في أصل الإمامة وصلتها بالنبوة، والثاني: في أهمية التأويل الباطني ودور الإمام فيه، والموقف الباطني من ظاهر النص القرآني؟ ثم ختمت الدراسة بمستخلص يبرز نتائج البحث؛ ومنها: أن الإسماعيلية يعتقدون بأنه لا إيمان لمن أخذ بظاهر النص ولم يعلم باطنه، وأن باطن النص لا يعلمه إلا الأئمة وحدهم، وهم مؤيدون من لدن الله تعالى تأييداً لا ينقطع حتى قيام قائم يوم القيامة صاحب الزمان.

الكلمات المفتاحية: الإمامة، التأويل الباطني، الإسماعيلية، أساس التأويل، ابن حيون.

د. يوسف بن علي الطريف

yaat33@gmail.com

The Impact of Imamate on the Esoteric Interpretation by the Isma'iliyyah according to the Book "Asas al-Ta'wil" by al- Nu'man Ibn Hayyun al-Isma'ili

Dr. Yosuf bin 'Ali bin Abdillah at-Turayf

Saudi Academic, Professor at the section of Creed and Modern Ideologies, in the Faculty of Shari'ah and Islamic Studies, in the Qassim University

Abstract

The purpose of this thesis is to explain the impact of the belief in *Imamate* by the *Ismai'iliyyah* on esoteric interpretation, and how this interpretation is related to the apparent meaning of the Qur'an. The study is made through an applied procedure on the book "*Asas al-Ta'wil*" *by* the chief judge of the Fatimid Caliphate *Al - N'uman Ibn Hayyun Al-Tamimi Al – Maghrbi* (died. 363 H.), because it's the most important source of *Isma'ili* thought until today. The nature of the study required that the method is inductive and critical. The thesis contained an introduction about the book and its author and two chapters. The first chapter is about the principle of *Imamate* and its relation to prophecy, and the second chapter is about the importance of esoteric interpretation and the role of imam in it, and esoteric attitude to the apparent meaning.

I ended the study with a summary where I mentioned the most important results, from them is that the *Isma'iliyyah* believes that you cannot have faith if you only accept the apparent meaning of the texts without knowing the esoteric interpretation. They also believe that their imams are the only ones that knows the esoteric meaning and Allah supports them until the *Qa'im* will come on the Day of Judgement, and he is *Sahib ul-Zaman*.

Key Words: *Imamate,* Esoteric Interpretation, *Ismaʾilism*, *Asas al-Ta'wil*, *Ibn Hayyun*.



مقدمةٌ

الحمدُ لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمدٍ، وعلى آله الطيبين، وصحبه أجمعين، وسلم تسليمـاً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد أجمع المسلمون قاطبةً على اعتبار القرآن الكريم المصدرَ الأساس لعقائد الإسلام وشرائعه، ولم تختلف الفرق الإسلامية؛ وكذا المنتسبة إلى الإسلام في اعتباره مصدراً لتعاليم الإسلام، ويبقى هنا الكلام على منهج كل فرقة في التعامل مع نصوصه؛ خاصة فيما يتعلق بظواهر الآيات، والكلام على محكمه ومتشابهه، ولم يكن ذلك محلَّ خلاف بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، فقد آمنوا بظاهره، ولم يتمحلوا تأويلاً، وعلى نهجهم سار سلف الأمة من التابعين فمن بعدهم، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

لكن أقوامـاً لم يُذعنوا لظاهر النص، وصاروا فيه فرقـاً شتى؛ فبعضهم حكَّم العقل ونحا إلى التأويل بصرف الظاهر بلا دليل، وبعضهم جنح جنوحـاً غنوصيـاً[1] فادعى أن ظاهر النص ما هو إلا مثال لباطنٍ لا يعلمه إلا

---

(١) يقصد بـ: (الغنوصية) أو (Gonse) كلمة يونانية، تعني: المعرفة. ثم استعملت بمعنى التوصل إلى المعارف بنوع من الكشف، فكأن المعارف تلقى إلى النفس بلا استدلال ولا نظر، ومن ذلك المعارف الإلهية، وتستمد الغنوصية أصولها الفلسفية من ديانات وثنية وأخرى فلسفية أبرزها الفلسفة الأفلاطونية الحديثة. انظر: الغنوصية في الإسلام، =

الوصيُّ والأئمة من ذريته! فخرجوا ببدعة: (التأويل الباطني) واستتر خلف هذه النظرية المخترعة عددٌ من الفرق؛ عُرفت في التاريخ الإسلامي بلقب: (الباطنية) والتي كانت ولا تزال أخطر الفرق على الإسلام وأهله، ويشتد خطرها ويعظم خطبها كلما قويت شوكة أتباعها، وكانت لهم دولة، فحينها ترفع شعار التشيع، وتصرخ بالتعظيم والتبجيل لآل البيت، لتصرف إليها أفئدةَ الأغمار والسُّذَّج.

وكان من بين الفرق الباطنية الخطيرة، والمنتشرة في العالم اليوم (فرقة الإسماعيلية) والتي تَعتبر (التأويلَ الباطنيَّ) أصلاً من أصولها، ومنهجاً مطّرداً لفكرها ولدعوتها أيضاً؛ زاعمةً أن التأويل الباطني إرثٌ إماميٌّ محض! وإن المطلع على كتب الإسماعيلية المعتبرة عندهم ليدرك خطورة المنهج التأويلي الباطني الذي زرعه مفكروهم، ونظَّروا له بطرق غنوصيةٍ لا تمت إلى العقل بصلة؛ معتبرة التأويل سراً مكتوماً يختص بالحجة القائم الذي لا يمكن أن يخلو منه الزمان! وهنا مكمن الخطر؛ إذ يعني هذا أن التأويل الباطني دائم لا ينقطع، وهو ما ألمح إليه أحد المستشرقين في معرض ثنائه على التشيع ووصفه له بأنه باطنية الإسلام، وزعمه أن «الشريعة إذا تجردت من الحقيقة والباطن تصبح عبودية وكدارة، ولا يتبقى منها سوى جدول للمعتقدات والتعاليم، بدل أن تظل منفتحةً لنشأة المعاني الجديدة الطارئة»[1].

=

هاينس هالم، ترجمة: رائد الباشا، نشر دار الجمل، ٢٠٠٣م.

(١) تاريخ الفلسفة منذ الينابيع، هنري كوربان (ص٨٥).

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الكتب الإسماعيليةَ التي عُنيت بالتأويل الباطني متقاربةٌ في منهجها، متشابهةٌ في مادتها، إلا أن كتاب: (أساس التأويل) للداعي الإسماعيلي: النعمان ابن حيون المغربي (ت ٣٦٣هـ) قد لفت نظري واسترعى اهتمامي؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي خصصه مؤلفُه لتأويل الآيات تأويلاً باطنياً مَبْنِيّاً على أصل الإمامة، وللكتاب -كما لمؤلفه- منزلةٌ كبيرة عند الإسماعيليين حتى اليوم[١].

ويعد ابن حيون حامل لواء نظرية (التأويل الباطني)، فقد اقتطع من كتبه لهذا الغرض قدراً كبيراً، وأولاه اهتماماً بالغاً[٢].

لذا رأيت أهمية إفراد دراسةٍ تختص ببيان أثر الإمامة في التأويل الباطني من خلال كتاب (أساس التأويل).

وإن كان من صعوبة في هذه الدراسة فلكونها تبحث في أحد كتب الإسماعيلية الباطنية التي دأبت الطائفة على إخفائها وسترها؛ كما قال أحد المستشرقين ممن كتب في تاريخها: «إن تكتم الحركة ونظامها الشبيه بالماسونية، والحجاب الكثيف الذي يخفي عقائدها وأشخاصها على غير المنتمين إليها؛ كل ذلك صعَّب مهمة المؤرخ...»[٣]، ويقول -أيضًا- عن

---

(١) انظر: التمهيد.

(٢) فكل كتابه (أساس التأويل) في تأويل القرآن، وكذلك كتابه: تأويل دعائم الإسلام، وكتابه: الرسالة المذهبة، وسائر كتبه لا تخلو من التأويل الباطني.

(٣) أصول الإسماعيلية، برنارد لويس (ص٣١).

مؤلفاتها: «إن الكتب الإسماعيلية في العقائد باطنيةٌ؛ وُضعت لنخبة خاصة من الناس؛ ولذا فقد تنطوي على معلومات خافية على الجمهور»، وذكر أن الحركة الإسماعيلية لا تخفي عقائدها وشخصياتها على أعدائها فحسب؛ بل على قسم كبير من أتباعها الذين لم يطلعوا على الأسرار الداخلية[١].

وتكمن خطورة التأويل الباطني في أنه العلم الذي عمِل الإسماعيليون -كما يقول أحد أبرز كتابهم- على تعميمه بين طبقات المسلمين بحذر شديد، وهو نتيجة تعلمهم الأساس ونظامهم الفكري؛ وأن من لم ينهل من المعرفة الباطنية فهو من العامة والمُعْدمين...![٢].

❑ مشكلة الدراسة:

إذا كان التأويل الباطني ذا خطورة بالغة على عقائد المسلمين، وهو من أسباب الضلال والانحراف، وربما اتخذه أعداء الإسلام ذريعةً للنيل من القرآن العظيم، فهل كان لمعتقد الإمامة أثر فيه من حيث التأصيل والديمومة؟ وكيف لنا أن نكتشف تلك الحقيقة من واقع أهم الكتب الإسماعيلية المعتبرة عندهم؟ وما الذي احتواه كتاب الأساس -بالتحديد- من تأصيل لنظرية التأويل الباطني؟ وهل استطاع هذا الكتاب أن يعطيَ تصوراً منطقياً للعلاقة بين الظاهر والباطن؟

---

(١) المصدر السابق (ص٥١).

(٢) انظر: مقدمة كتاب أساس التأويل، لمحققه: عارف تامر (ص ١٥).

في هذه الدراسة محاولة للإجابة عن تلك التساؤلات.

❑ أهداف الدراسة:

تهدف الدراسةُ إلى بيان أثر الإمامة في التأويل الباطني من خلال إجراءٍ تطبيقيٍ على أحد أهم مصادر الفكر الإسماعيلي، وعرض نماذج من التأويل الباطني؛ تبرز أهمية هذا الأصل، وإلى أي مدى يقف التأويل الباطني الإسماعيلي من ظاهر النص؟

❑ حدود الدراسة:

تختص هذه الدراسة بإبراز أثر معتقد الإمامة عند الإسماعيلية على التأويل الباطني للنص، معتمدةً في الأصل على كتاب: (أساس التأويل) للنعمان بن حيون الإسماعيلي، مع ذكر ما تقتضيه طبيعة الدراسة من نقلٍ عن مصادر إسماعيلية أو أخرى لمخالفيهم.

❑ الدراسات السابقة:

لم أجد في الأدبيات السابقة عن (الإسماعيلية) ما يحمل موضوعَ هذه الدراسة بمحدداتها المذكورة آنفًا، غير أنه لا يخفى على المهتمين بأن الدراسات حول الفكر الإسماعيلي كثيرةٌ ومتنوعةٌ؛ فبعضها كتبها إسماعيليون[(١)] وبعضها كتبها مخالفوهم[(١)]، وبين هذه وتلك جاءت كتب

---

(١) منها: كتب ابن حيون المغربي وسيأتي ذكر شيء منها في التمهيد، وسرائر النطقاء، =

المستشرقين[٢] التي يدعي مؤلفوها الموضوعية والحيادية في الطرح! والحق أنها جانبت الصواب في بعض آرائها، وكشفت وجهـاً من الحقيقة في بعض آخر، مما جعل الباحث في الفكر الإسماعيلي مضطراً للرجوع إليها والإفادة منها.

❑ منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة أن يكون منهجها استقرائيـاً نقديـاً.

❑ إجراءات الدراسة:

ـ نقلت نصوص كتاب (أساس التأويل) لابن حيون وفقـاً للطبعة التي

=

والكشف، كلاهما لجعفر اليمن، وإثبات النبوة، والينابيع، كلاهما لأبي يعقوب السجستاني، وراحة العقل، للكرماني، وكنز الولد، للحامدي، وسمط الحقائق، لعلي بن حنظلة...وغيرها...وتاريخ الإسماعيلية، لعارف تامر الإسماعيلي، وأعلام الإسماعيلية، لمصطفى غالب الإسماعيلي.

(١) من أبرزها: فصول في كتب الأديان والفرق؛ مثل: الفصل، لابن حزم، والملل والنحل، للشهرستاني، والفرق بين الفرق، للبغدادي، والتنبيه والرد، للملطي...وكتب خاصة بالباطنية؛ مثل: فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي، وكشف أسرار الباطنية، للحامدي، وبيان مذهب الباطنية وبطلانه، للديلمي...ومن الكتب المعاصرة: طائفة الإسماعيلية، لمحمد كامل حسين، والإسماعيلية، لإحسان إلهي ظهير، وأصول الإسماعيلية، للسلومي...وغيرها.

(٢) منها: أصول الإسماعيلية، والدعوة الإسماعيلية الجديدة، كلاهما لبرنارد لويس، والمنتخب من كتب الإسماعيلية، لإيفانوف.

اعتمدتُ عليها؛ وهي من تحقيق: عارف تامر، ونشر: دار الثقافة، في بيروت.

ـ كتبت الآيات بالرسم العثماني؛ وقصدت إهمال ما وقع في الآيات المذكورة في كتاب الأساس من تحريف لا يحصى، يعجب منه كل قارئ للكتاب.

ـ ذكرت النقد والتعليق إثر كل نص أنقله من كتاب الأساس؛ كلما احتاج المقام، إلا ما كان بطلانه ظاهراً وهو كثير.

ـ أشرت إلى بعض كتب الإسماعيلية المعتمدة في مذهبهم، كلما رأيت أن في الإشارة إليها فائدةً، ولم أشأ أن أنقل عنها نصوصًا دفعًا للإطالة، وكلامهم على قضية التأويل فيه تماثل كبير.

ـ إكمالاً للفائدة قصدت الإشارة إلى بعض ما ذكره علماء الفرق من نقد للعقائد الإسماعيلية، ونقلت شيئًا من أقوالهم مما رأيت ضرورة نقله، وجعلته خاتمةَ هذه الدراسة.

❑ خطة الدراسة:

اشتملت الدراسة على مقدمةٍ وتمهيدٍ وفصلين وخاتمة.

تمهيد: ابن حيون وكتابه الأساس.

الفصل الأول: الإمامة وصلتها بالنبوة.

المبحث الأول: أصل الإمامة.

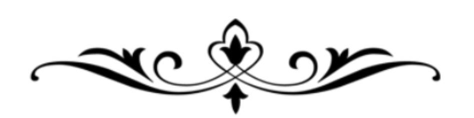
المبحث الثاني: بين الإمامة والنبوة.

الفصل الثاني: التأويل الباطني ودور الإمام.

المبحث الأول: أهمية التأويل الباطني.

البحث الثاني: بين الباطن والظاهر ودور الإمام.

الخاتمة: وفيها أبرز نتائج الدراسة.



تمهيد

ابن حيون وكتابه «أساس التأويل»

۞ ابن حيون:

يعد النعمان بن محمد ابن حيون التميمي، المغربي، أبوحنيفة، أحدَ أبرز علماء المذهب الإسماعيلي، بل هو المنظِّر الأول لمذهب الدولة العبيدية[١]. ولد في المغرب، وتوفي في القاهرة سنة (٣٦٣هـ)، وهذا يعني أنه لم يدرك مرحلةَ الانقسام الإسماعيلي الكبير الذي حدث بعد وفاة المستنصر العبيدي سنة (٤٨٧هـ)، حين انقسمت الإسماعيلية إلى فرقتين؛ هما: المستعلية الغربية، والنزارية الشرقية[٢]، وعليه فإن ابن حيون معتبر الإمامة والمكانة عند الفرقتين.

كان ابن حيون لصيقَ المعزِّ العبيدي، قدم معه من أفريقية إلى مصر، وتقلد منصب قاضي القضاة في مصر في عهد العزيز، وكانت له رئاسة في العلم والفقه الإسماعيلي، عُرف عند الإسماعيلية بلقب: (قاضي القضاة وداعي الدعاة) واشتهر أيضـاً عند الكتاب الإسماعيليين بلقب: (القاضي

---

(١) انظر الثناء عليه وعلى تآليفه، من الداعي الإسماعيلي: علي بن الوليد اليماني (ت٦١٢هـ) في كتابه الذخيرة في الحقيقة (ص ١١٥).

(٢) انظر تفاصيل أوسع في: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين، للمقريزي (٣/ ٢٧)، وطائفة الإسماعيلية لمحمد كامل حسين (ص٤٢ وما بعدها).

النعمان)، ويطلق عليه الشيعة لقب: (أبي حنيفة الشيعي)؛ لتمييزه عن الإمام الشهير أبي حنيفة النعمان.

ومن العجب أن الإمامية على اختلافهم مع الإسماعيلية اختلافـًا يصل إلى حد التكفير المتبادل؛ يعظمون ابن حيون المغربيَّ هذا ويقرُّون له بالإمامة والعلم؛ بل وصل الأمر ببعضهم أن جعله من الاثني عشرية! وأنه كان يُظهر لأتباعه المذهبَ الإسماعيلي تقيةً[1]! ولعل هذا يعود إلى ذكاء ابن حيون في التأليف على المذهب الشيعي، يقول الحافظ الذهبي -عند ترجمته لابن حيون-: «ويُعدُّ من الأذكياء»[2].

ولابن حيون مؤلفات كثيرة على مذهب الإسماعيلية في الأحكام والعقائد؛ من أبرزها: (دعائم الإسلام) الذي قال فيه بعض الباحثين الإسماعيليين: إنه «أقوم مصدر لدراسة القانون عند الفاطميين»[3]، ومنها: (تأويل دعائم الإسلام) و(افتتاح الدعوة) و(الهمة في آداب أتباع الأئمة) و(الأجوبة المختارة)[4]، ولكثرة كتبه وغزارة علمه على مذهبه المنحرف؛

---

(١) انظر: طبقات أعلام الشيعة، لآغا بزرك الطهراني (ص ٣٢٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٥٠).

(٣) مقدمة: آصف علي أصغر فيضي لكتاب: دعائم الإسلام (ص٩).

(٤) انظر في ترجمته: وفيات الأعيان، لابن خلكان (٥/ ٤١٥) والأعلام، لخير الدين الزركلي (٨/ ٤١) ، والقاضي النعمان مؤلف وفقيه فاطمي، لآصف علي أصغر، منشور في: مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، لندن، عدد: يناير، ١٩٣٤(ص١-٣٢) ، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: نعمان، مجلد ٣، ص٩٥٣.

قال فيه الحافظ الذهبي: «كان له يد طولى في فنون العلوم والفقه والاختلاف، ونفس طويل في البحث، فكان علمه وبالاً عليه»[١].

۞ كتاب: «أساس التأويل»:

صنف ابن حيون كتابه (أساس التأويل) وجعله مختصاً بموضوع التأويل الباطني تنظيراً وتطبيقاً، ويذكر محققه -وهو أحد أبرز الباحثين في التراث الإسماعيلي- أن كتاب الأساس هذا يعتبر «الكتاب الوحيد بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الذي يعالج موضوعاً معيناً هو: التأويل»، فالكتاب إذاً ذو أهمية بالغة من بين الكتب الباطنية الموغلة في الباطن.

وأوضح المحقق أيضاً أن هذا الكتاب يعتبر لدى الإسماعيليين من الكتب الثمينة، والذخائر الغالية؛ التي تقضي تعاليم الإسماعيلية العقائدية بالمحافظة على سريته، وكتمان تعاليمه، والسهر على منع تسرب المواد العقائدية التي وردت فيه لمن هم من غير الطائفة؛ زاعماً أن ذلك العلم الباطن الذي احتوى عليه هذا الكتاب يخرج عن المفهوم العام لدى طبقات العامة الذين لم ينالوا من الثقافة إلا قشورها، ومن العلوم إلا ظواهرها[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٥٠)

(٢) مقدمة كتاب أساس التأويل، لمحققه: عارف تامر (ص ٦) والعجيب أن الكتاب مليء بالأخطاء اللغوية والمطبعية، وفيه تحريف شنيع لآيات القرآن، فعامة الآيات فيها أخطاء فادحة، وهو يشير إلى قلة اهتمام هؤلاء القوم بكتاب الله تعالى.

فالكتاب إذاً في غاية الخطورة، حتى على عوام الطائفة الإسماعيلية!

وقد ذكر المؤلف أنه صنف كتابه هذا بعد كتابه: (دعائم الإسلام) الذي كان في ظاهر علم الشريعة، وكذلك بعد كتابه: (حدود المعرفة) الذي لم يجسر فيه المؤلف على التأويل الصريح؛ بل اكتفى فيه بذكر الرموز والإشارات الباطنية، أما في هذا الكتاب فقد صرح مؤلفه بأنه بلغ في درجات التأويل مبلغاً عظيماً بات من الواجب عليه أن يبسط كتاباً للمستجيبين للدعوة الإسماعيلية الباطنية في حدٍّ من حدود التأويل والباطن يلي حدَّ الرمز[١]، وليكون المستجيب -كما يقول المؤلف- «يعلم حقائق ظاهر ما في كتاب (الدعائم) من الأعمال المفروضة، ويعلم حقائق العلم والأحكام من قبل الإمام؛ فيصلح ظاهره، ثم يتهيأ بما يسمع، وتتقدم عنده المعرفة...ويعلم حقيقة ذلك العلم الظاهر الذي فرض عليه والأحكام التي تعبد بها...ثم يرقى بعد ذلك في حدود العلم والحكمة بقدر قبوله واستحقاقه حداً بعد حدّ، ودرجةً بعد درجةٍ[٢].

وقد بدأ المؤلف كتابه بذكر جوامع القول في تثبيت التأويل، ثم ذكر تأويل الإيمان والإسلام، وأن لكل رسول أصلين لشريعته: أصلاً في الظاهر

---

(١) انظر: (ص ٢٧)، والرمز: ما يخالف ظاهر النص، ويحتمله التأويل، وهو دون التأويل الباطني. انظر: الرمزية دراسة تقويمية، أنابلكيان، ترجمة: الطاهر مكي، دار المعارف،١٩٩٥م.

(٢) (ص ٣١٥-٣١٦)

وأصلاً في الباطن، ثم ذكر بأن أصل محمدٍ ﷺ: شهادة ألا إله إلا الله، ثم أخذ بتأويلها تأويلاً باطنياً[١]، كما أن الكتاب تضمن تأويلاً لقصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، واستغرق ذلك جزءاً كبيراً من الكتاب[٢]، ورتبهم في فصول ستةٍ بحسب المعتقد الإسماعيلي؛ وهم الرسل النطقاء: آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد عليهم الصلاة والسلام، وفي دَور كل رسول ذكر الأنبياء الآخرين ممن ورد ذكرهم في القرآن.

ولما وصل المؤلف إلى الفصل الأخير من الكتاب جعله في تأويل قصة محمد ﷺ؛ وقصتُه -حسب معتقد المؤلف- تدور حول الإمامة في كل أحوالها وتفاصيلها!! ثم ذكر بعض نصوص التوراة والإنجيل التي جاءت -كما يزعم- بالبشارة بالنبي محمد ﷺ، وأولها تأويلاً باطنياً كما فعل بآيات القرآن![٣].

ومن تأمل هذا الكتاب أيقن بأن أحداً لن يستطيع أن يحرف معانيَ القرآن الكريم بمثل ما فعل ابنُ حيون في كتابه هذا؛ ولذا قال ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ) -عندما ذكر ابن حيون-: «له كتب كثيرة تدل على انسلاخه

(١) انظر: (ص ٣٣-٤٩)

(٢) انظر: (ص ٥٠-٣١٤)

(٣) انظر: (ص ٣٢٠-٣٢٦)

من الدين؛ يبدل فيها معانيَ القرآن ويحرفها»[١].

ولذا فإن هذا الكتاب من أخطر كتب الباطن؛ التي تكشف بجلاء شناعة المذهب الإسماعيلي الباطني، وغنوصيته، وبُعده عن مقتضى المعقول، مما سيتضح من خلال هذه الدراسة في أثر الإمامة في التأويل الباطني؛ ليعلم أصحاب الدعوة الإسماعيلية خطورة ما هم عليه من اعتقاد أصل الإمامة، وأن هذا الأصل ما هو إلا معول هدم لأصول الإسلام كلها؛ باسم التأويل الباطني المعصوم! فإلى فصول الدراسة.



(١) شذرات الذهب (٣/ ٤٧)

الفصل الأول

الإمامة وصلتها بالنبوة

المبحث الأول

أصل الإمامة

يعتبر أصلُ الإمامة في الفكر الإسماعيلي غايةَ الغايات ومنتهى الإرادات، وأصلَ الأصول؛ بل الإمامة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين كله، وهي القطب الذي تدور عليه جميع أحكام الإسلام، ولا يصح إيمان عبد حتى يعرف إمام زمانه، ويؤمن به ويذعن له ويطيعه، ومن أخل بهذا الركن العظيم فلا يُقبل منه صرف ولا عدل.

والقول بأن الإمامة قضية أصولية، وأنها ركن الدين الذي لا يجوز للرسل إغفاله، ولا تفويضه للعامة؛ عقيدةٌ تجمع عليها سائر فرق الشيعة[1]، إلا أن الإسماعيلية أسرفوا في التأويل لإرساء هذا المعتقد، وما كتاب (الأساس) هذا إلا أنموذجاً ضخماً لتأويلاتٍ لا منتهى لها.

وابن حيون بنى كتابه (أساس التأويل) على هذا، ورسمه لتثبيت أصل الإمامة، وجعل موضوعه من أوله إلى منتهاه في تأويل آيات القرآن من منطلق (سرّ الإمامة)، وأورد فيه عبارات التبجيل والتمجيد لهذا المعتقد الخطير في نظر الإسماعيليين قديماً وحديثاً؛ وها هو ابن حيون يعبر عن

(١) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني (١/ ١٤٦)

أهمية أصل الإمامة؛ فيقول: «هي قطب الدين الذي يدور عليه، ولا يجزى العمل ولا يقبل إلا بعد معرفته إمام الزمان»[١]، وإنما يقال «للمؤمن: مؤمن؛ لأنه آمن بالله وبالرسول وبولي الزمان»[٢]، والأئمة عند الإسماعيلية فوق الخلق، والذي يجب لهم أعظم وأجل من أن يُدرك بعلم أو عقل[٣]، ويجب لهم من التوقير والطاعة والتسليم بالنية والقول والعمل ما كان يجب منه لرسول الله ﷺ![٤]، ومغفرة الله للمذنب لا تكون إلا من قبل الإمام[٥]، ويجب على العبد أن يخاف منهم كما يخاف الله، ويتقيهم كما يتقي الله[٦]، وأن يُقبِّل الأرضَ بين أيديهم ويعتقدَ ذلك تعظيماً لهم وتقرباً إلى الله[٧].

ويذكر ابن حيون في كتابه (الأساس) أن الإمام هو الصراط المستقيم المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فالصراط في اللغة: الطريق، فمثَّل الإمامَ بالطريق؛ لأن من لزم الطريق لن يضل،

---

(١) (ص ٣١٥) وقارن مع: دعائم الإسلام، لابن حيون (١/ ٥١) وانظر نحوه في: المصابيح في إثبات الإمامة، لحميد الدين الكرماني (ص ١٢) وتاج العقائد، لعلي بن الوليد (ص ٦٥) وإثبات الإمامة، للنيسابوري (ص ٢٧)

(٢) (ص ٣٤١)

(٣) الهمة في آداب أتباع الأئمة، لابن حيون (ص ١٥)

(٤) المصدر السابق (ص: ٢٢) وانظر: الصفحات: ٣٥، ٩٣، ١١٥، ١٩٣.

(٥) المصدر السابق (ص ٤٥)

(٦) المصدر السابق (ص ٩٩).

(٧) المصدر السابق (ص ١٤٩).

وكذلك من لزم الإمام لن يضل![1].

ويؤكد المؤلف -على المعتقد الإسماعيلي- أن الله تعالى لم يُخلِ أرضَه من (حجة) على عباده[2]، فالإمامة تنتقل ولا تزول، ولا بد من وجود إمامٍ ظاهرٍ أو مستقرٍ؛ ولذا ابتدأ أول فصول الكتاب بالتأويل الباطني لقصص الأنبياء والأئمة في أدوارهم، ويقول: إن الله تعالى أقام «في كل أمة رسولاً للقيام بظاهر شريعتها، وأساساً لباطن دعوتها، وأئمةً تترى بين كل رسول ورسول؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»[3]. وتتفاضل درجاتهم ومراتبهم، فالنطقاء[4] أعلاهم درجةً؛ وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وسابعهم قائم الزمان، ثم يليهم في الفضل الأسس الذين أقامهم من أقامهم من الأئمة في حياته لتأدية الباطن، والأساس يقوم بعد الناطق ويخلفه من بعده فيكون إماماً، ويقيم حجةً لنفسه ليقوم مقامه، وهكذا حتى يدور دَور ذلك الناطق، ويأتي بعده ناطق آخر بشريعة أخرى،

---

(١) (ص٦١) وكذلك (ص٩٠).

(٢) (ص٤٠)، وانظر: الهمة في آداب أتباع الأئمة، لابن حيون (ص ٤٦) وقارن مع: إثبات الإمامة، للنيسابوري (ص٢٧-٢٨).

(٣) (ص ١٠٥)، وانظر: الهمة في آداب أتباع الأئمة (ص ٤٦).

(٤) (الناطق) في المصطلح الإسماعيلي يطلق على الرسول الذي ينطق بظاهر الشريعة؛ وقد يقع اسم الناطق على الإمام؛ لأنه ينطق بما كان الرسول الناطق ينطق به في دوره من ظاهر الشريعة التي بعث بها. انظر: كتاب (أساس التأويل) ص ٥٠، والرسالة المذهبة، لابن حيون (ص٣٧)، و(الافتخار) للسجستاني، ص ٦١ وما بعدها، والذخيرة في الحقيقة، لعلي بن الوليد (ص ١١٦).

ويجري كذلك كما جرى أولاً؛ لأنه لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته طرفة عين[(١)]، وآخر قائم بالإمامة في هذه الدار هو (صاحب القيامة) الذي يجمع الله به العباد فيستوون عنده في الثواب والعقاب، فيثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين[(٢)].

وبناءً على معتقدهم أن (الإمامة) هي قطب الدين الذي عليه يدور! فقد أوجب المؤلف على نفسه أن يذكر في هذا الكتاب بيانها، وتأويلها، واحتاج -كما يقول- بأن يبتدئ بذكر ذلك من لدن آدم! فكان ابتداؤه فيه؛ فذكر قصته، ودور كل ناطق بعده، ومن ذكره الله تعالى من الأئمة الذين كانوا في أدوار الأنبياء، ومن اختصه الله منهم بالنبوة والرسالة...[(٣)].

وفي سياق المؤلف لقصص الأنبياء أبرزَ نظرية تسلسل الإمامة من مبدأ التاريخ إلى منتهاه؛ حسب الفكر الإسماعيلي؛ وذلك باستعمال التأويل الباطني الذي لا يتوقف عند حدٍّ[(٤)]، وسأذكر فيما يلي بعض النماذج لما أورده في هذا الكتاب.

---

(١) (ص ٥٢).

(٢) انظر: (ص ٣١٣) وقارن مع: فضائح الباطنية، للغزالي (ص ٤٧).

(٣) انظر: (ص ٣١٦).

(٤) ومثله الداعي: جعفر اليمن، الذي بنى كتابه (سرائر أسرار النطقاء) من أوله إلى آخره في تأويل قصص الأنبياء على المنهج الباطني، وفيه من المخاريق والمخازي أشد مما في كتاب الأساس لابن حيون. وكذا لحاتم ابن زهرة في رسالته (الأصول والأحكام) (ص١٠٥ وما بعدها).

فقد ابتدأ القصص -كما قال- بأصل الإمامة في الحد السفلي، وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فآدم هو الناطق الأول للدور الأول، والمسمى دور الستر[(١)]، وأساسه[(٢)] الصامت شيث، وبعده ستة أئمة، ثم أخذ يؤول الآيات الواردة في قصة آدم؛ تأويلات يطول ذكرها، ولأهمية ما ذكره من تلك التأويلات الباطنية -مما له علاقة بترسيخ (نظرية الدَور) عند الإسماعيلية وبدايتها وأساسها- أورد شيئًا منها؛ فقد ذكر المؤلف بأن الله تعالى لما أراد خلق آدم الخلق الثاني الذي هو خلق العلم، وأن ينصبه إمامًا = ندب من الملائكة اثني عشر ملكًا نقيبًا يأخذون منه، ويبلغون عنه أهل الأرض؛ فلما عرف الملائكة أنه يخلق من طين، والطين في التأويل الباطني هو: العلم الظاهر، والملائكة خلقوا في خلق العلم اللطيف الروحاني، قالوا لربهم سبحانه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]، فأراد الله أن يُري الملائكة عجزها، فبعد أن خلق آدم من طين -أي: ابتدأه بالعلم

---

(١) الأدوار عند الإسماعيلية نوعان: الأدوار الكبيرة وهي التي تبتدئ من آدم وتنتهي بالقائم، والأدوار الصغيرة؛ وهي التي تبتدئ بقيام الناطق المرسل بشريعة، وتنتهي بالناطق الذي يليه. ولكل دور إمام مقيم وإمام متم وأساس وناطق وسبعة أئمة، والمقيم هو الذي يربي الناطق في دعوته، والمتم هو الذي يختم الدور، والأساس هو حجة الناطق في حياته، ويتسلم الوصية من بعده، وهو صاحب التأويل الباطني، كما أن الناطق صاحب التنزيل الظاهري. انظر: إثبات النبوات، للسجستاني الإسماعيلي ص ٢٠١، والأنوار اللطيفة لطاهر الحارثي، ص١٣٠، وانظر: الذخيرة في الحقيقة، لعلي بن الوليد (ص ١٠٤ وما بعدها).

(٢) (الأساس) ومعناه: أنه أساس المؤمنين لبناء آخرتهم بما يقفون به على بيان الوحي، واشتق للوصي اسم الأساس. انظر: تحفة المستجيبين، للسجستاني الإسماعيلي (ص ١٧).

الظاهر- نفخ فيه الروح -يعني: العلم الباطن- وهو المذكور في قوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩]، أي أذعنوا له بالطاعة؛ إذْ أمددته بالعلم الروحاني، وأن رفض إبليس أن يكون تبعـاً لآدم سببه أن آدم نشأ بعلم جسداني بخلاف إبليس فإنه نشأ في العلم التأييدي الروحاني(١). ويوغل ابن حيون في التأويل الباطني فيجعل الخلق في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] معناه: خلق التأييد، وليس خلق الجسد، أي: أمر الله آدم فتولى تأييدها وتعليمها وقرنها به، وجعلها زوجته وحجته، عوضـاً عن إبليس الذي كان مؤهلاً ليكون حجة لآدم!! وأن الجنة التي أُسكنها آدم في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥] هي: التأييد بالعلم الحقيقي الروحاني...

ويقول المؤلف: إن الله تعالى قد أباح لآدم وزوجه حدود الرسل على شرائطها وواجباتها التي أوجبها الله فيها من تحليل ما أحله وتحريم ما حرمه، وجعل الشجرة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥] مثلاً لحد قائم الزمان الذي هو صاحب القيامة، والذي يكون التكليف في حده مرفوعـاً(٢)، فصار قائم الزمان -كما يرى ابن حيون- هو الذي يُجرِّد الباطن ويظهره، وذلك ممنوع على الرسل من قبله، وهذا يعني بوضوح تام أن قائم الزمان أفضل ممن قبله من الرسل

(١) (٥٤-٥٧).
(٢) (٦٣-٦٦).

وأعظم!! بل إنّ قول إبليس: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الإسراء:٦٢] يعني بذلك صاحب القيامة!. وتأول قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١] بارتفاع التأييد عنهما، وأنهما لمّا تابا رجع إليهما، واشتد إنكاره على من قال إنهما تعرَّيا، وجعل ذلك مأخوذاً عمن أسلم من أسلافهم من اليهودِ عبدِالله بن سلامٍ وكعبِ الأحبار وغيرِهما[1]، وأن الهبوط المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨] هو هبوط آدم من حدّ التأويل بلا حجاب، إلا أنه لم يزل متصلاً بالحدود العلوية الروحانية، وجرى ذلك كذلك في النطقاء من ولده[2].

وفي نهاية قصة آدم أراد ابن حيون أن يوضح قضيةً تعتبر أساسًا لفكرة الإسرار بعلم الباطن وإيداعه لأساسه ووصيه، فيقول: إن آدم -وهو أول النطقاء- أراد أن يوصي لابنه هابيل فحسده قابيل وقتله، ثم زعم أن الله وهب آدم (شيئًا) فسماه: هبة الله، فأودعه للعلم وأسره إليه وأمره بكتمانه تقيةً عليه من قابيل أن يقتله، قال: فجرت بذلك السنةُ في إسرار العهد وحفظه!

هكذا يفترض المؤلف ويخترع هذه الفكرة حتى يؤصل لنظرية الاستيداع عند الإسماعيلية. ويذكر أن شيثًا قام بأمر الإمامة من بعد آدم، وهو وصيُّه، قال: «وكان ممن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو

---

(١) (٦٦-٦٨).

(٢) (ص ٧٠).

من دَور آدم صلوات الله عليه ثم انتهى الأمر إلى نوح صلوات الله عليه...» وهكذا لم يجد المؤلف ما يسعفه في سرد أئمة دور آدم فلم يذكر غير شيث وإدريس!! فانتقل إلى دور نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

وفي قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو (الناطق الثاني) في المعتقد الإسماعيلي، بالغ ابن حيون في التأويل الباطني كعادته، فجعل الفلك المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ [المؤمنون: ٢٧] مثلًا على أساس دعوته، وأن ركوبها يعني: نجاة المستجيبين للدعوة بحياة العلم الروحاني النوراني، وأن الغرق في البحر يعني: غرق الكفر والضلال، وأن السفينة تجري وترسو على سبعة أشياء؛ وهي تدل في الباطن على (السبعة النطقاء) والسبعة الأئمة بين كل ناطق وناطق، ثم شرع في ذكر تفاصيل صناعة السفينة من ألواح وحبال وغيرها؛ فالألواح -كما يقول- اثنا عشر لوحاً وهي تدل على اللواحق الاثني عشر[٢]، وهكذا يمضي في وصف السفينة بطريقة تخمينية عجيبةٍ.

إذاً فسفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست -في المعتقد الإسماعيلي- إلا مثالاً

---

(١) (ص ٧٠).

(٢) (ص ٧٦-٨٠)، و(اللاحق) في المعتقد الإسماعيلي مصطلح يطلق على الداعي المكلف بشؤون إحدى (الجزر الاثني عشر)، فهم يرون أن العالم ينقسم إلى ١٢ قسماً، على غرار أشهر السنة، وسموا كل قسم: جزيرة، وجعلوا على كل جزيرة داعياً...انظر تفصيل ذلك في: الحركات السرية في الإسلام، محمود إسماعيل (ص١٢٧) الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٧م.

تضمَّن الدلالة على الدعوة، وعلى النطقاء، والأئمة في أدوارهم، واللواحق أيضـاً!! وتأول المؤلف قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧] بقوله: «يعني: جاء علم التأييد، وتكلم به الأساس، وصدر عنه علم التأويل ذي النور»[١]، وأوّل قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود:٤٢] بقوله: «يعني: جرى الأساس في دعوته بالمستجيبين له في العلوم من حد إلى حد؛ ليوقفهم على حدود المعرفة ومراتبها»[٢]. وأن ابن نوح الذي أبى أن يركب معه في السفينة كان يأمل أن يكون الأمر إليه، فلما أقام نوح غيره أساسـاً للدعوة حسده، وأنف عن الدخول في حكمه.! وأنه لاذ إلى علماء الظاهر...!! وتأول الأرض والسماء في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود:٤٤] بأنّها «مثل للأساس الذي أقامه نوح لدعوته الباطنة، وأمره أن يستر ما صار إليه من العلم الباطني، وصيانته عن غير أهله، والاستيلاء عليه، وجمعه عنده، والسماء: مثل للناطق»[٣] والناطق هنا هو نوحٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فأمر نوحـاً أن يدع العلم الباطن إلى أساسه ويُقبل على الظاهر!! وذكر بأن السنين المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤] أنها مدة دَوره، ولُبث شريعته، وليس المراد أنه عاش

---

(١) (ص ٨٢).

(٢) (ص ٨٣).

(٣) (ص ٨٥).

كل هذه السنين[١].

ثم ذكر ابن حيون في كتابه هذا قصة هود وصالح عليهما السلام[٢] وجعلهما من دَور نوح، وأنهما أنذرا بشريعته ودعيا بدعوته. ومن عجيب ما ذكر في تأويلاته لقصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تأويله للناقة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود: ٦٤] أنها مثل للحجة، وأن الله أمر ألا تمسَّ بسوء؛ وذلك لما نصبها لحمل الباطن، وبسط الدعوة، وأن عقرهم للناقة معناه: دفعهم الحجة عن مقامه، والتغلب عليه في ظاهر أمره...وأن قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف:٧٧] أي امتنعوا عن مسائل صاحب الزمان، وحججه التأييدية[٣].

ولما انقضى عهد نوح، وكمل عدد أئمته؛ بعث الله تعالى إبراهيم (الناطق الثالث) في الفكر الإسماعيلي، ولما كان إبراهيم مجتبى من الله وواجب أن يكون لكلِّ مخصَّصٍ مجتبى معلمٌ يعلمه ويرشده؛ أطلعه الله على أقرب الحدود الأرضية، وهو الداعي المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام:٧٦]، وبحسب التأويل الباطني فإن (الليل) مثلٌ لكتمان العهد الذي أخذه الداعي على إبراهيم، والمراد بقوله: هذا ربي؛ أي: متولي أمري، والقمر في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ

(١) (ص ٨٧).

(٢) انظر: (ص ٩٦-١٠٦).

(٣) انظر: (ص١٠٠) و (ص ١٠٢).

بَازِغًا ﴾ [الأنعام:٧٧] هو: الحجة، والشمس في قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام:٧٨] :الإمام، وهكذا حتى وقف إبراهيم على حد صاحب الزمان، ووصفه لمن فوقه من الحدود العلوية فأخلص في توحيده، وتبرأ من الشرك!(١).

وكان إسماعيل أساساً لشريعة إبراهيم عليهما السلام، والبيت الحرام الذي بناه إبراهيم، ودعا ربه أن تهوي إليه أفئدة الناس = جعله المؤلف مثلاً لوجوب إتيان الإمام من كل مكان، ثم أخذ المؤلف يذكر الكعبة المشرفة وتفاصيل بنائها...جاعلاً القواعد المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [البقرة:١٢٧] :أربعةَ قواعد؛ والمراد: النطقاء الأربعة من بعد إبراهيم؛ وهم: موسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- والقائم، وأن الصفا والمروة مثل الإمام والحجة، والطواف بينهما؛ مثل: لطاعتهما. وأول المؤلف الطائفين في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة:١٢٧] بأنهم: اللواحق الاثنا عشر أصحابُ الجزائر، وهم الطائفون بالإمام، والعاكفون هم: الأئمة الملازمون المقيمون، والركع هم: النطقاء!! بل إن قول إبراهيم لأبيه: ﴿ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣] أي: أدلك على إمام زمانك(٢). وأول ابن حيون قول إبراهيم للذي حاجَّه في ربه: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ

(١) ص (١١٠-١١١).

(٢) انظر: (ص ١١٧-١١٨).

يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [البقرة:٢٥٨] بأن الشمس: كلمة الله التي أظهرها من ناطق الزمان، وجعل غروبها في أساسه، وأوَّل الذبح المذكور في قول إبراهيم لابنه إسماعيل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصافات:١٠٢] بقوله: «أي: آخذ عليك ميثاق الإمامة، وأقيمك إماماً لشريعتي»(١)، وكان إسماعيل هو الأساس، وإسحاق دونه في حدِّ الإمامة. ويرى أن قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية؛ أراد من ذلك أن يسأل مرتبة الحجة، وكان دونها، وكان الله قد وعده بالإمامة...وأن الطير المراد بهم المأذونون بالمفاتحة، وقد أُمر إبراهيم بأن يبلغهم حدود النقباء، وقوله: ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً أي: اجعل بكل جزيرة من جزائر الأرض واحداً من النقباء الاثني عشر(٢). بل جعل ابن حيون امرأة إبراهيم المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ ﴾ [هود:٧١] أنها في الباطن: أساسه!!

وتأول قصة يوسف مع أبيه يعقوب عليهما السلام؛ أن يعقوب كان إماماً، وأن يوسف اتصل به التخيُّل من التأييد؛ فأراه الله أن الإمامة تصير إليه، وأن الإمام الذي هو يعقوب، وحجته المرموز له بأم يوسف! وإخوته الذين هم مثل للواحق؛ كل هؤلاء سيخضعون له...وأول قصة يوسف مع إخوته –حتى تقلده منصب عزيز مصر– بتأويلات تدور كلها حول الإمامة،

---

(١) (ص ١٢٤).

(٢) (ص ١٢٨).

وجعل الأرباب المذكورين في قوله يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] أي: أأئمة تفرقوا، واختلفوا يعني: أهل الظاهر. خير أم إمام واحدٌ قام بأمر الله، لا اختلاف بما جاء به؛ بل هو واحد الزمان!! بل تأول السبع البقرات التي رآها الملك: بالسبعة النطقاء، والأئمة السبعة بين كل ناطق وناطق، وكل القصة تدور حول الإخبار عن أدوار النطقاء والأئمة كيف تكون! وقول يعقوب لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] يعني: اختبروا الإمامة أين حلَّت؟ والبابيةَ لمن صارت؟!![1].

ويمضي مؤلف الكتاب بلا كلل يؤول كل الآيات الواردة في قصص الأنبياء بهذه الصورة الغريبة، فأم موسى في الباطن: الداعي الذي دعا موسى، وأخته: مثل للمأذون، والنار التي رآها: حدّ الناطق، وعصا موسى: حدّ الإمامة...والقرية التي أُمر بنو إسرائيل بدخولها؛ هي: الإمام...بل يؤول قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] بأن الرب هنا المراد به: مربيه بالحكمة، وهو حده العلوي!! وأن موسى سأل النظر في حده الذي يتصل به من فوقه... فسأل موسى زيادةً في رؤيا العلم فوق الذي أوتيه وحُدِّد له، والألواح؛ هم: اللواحق، الذي يُثبِتُ الأساسُ عندهم علمَ التأويل...[2]. والجبال التي تسبح مع داود: أمثال اللواحق، والطير: أمثال

(١) (ص ١٣٥-١٦١).

(٢) انظر: (ص ١٨٠-٢٤٦).

الدعاة، والنمل في قصة سليمان: أمثال المأذونين الذين يأذن لهم الدعاة في كسر الظاهر...والجن الذين يعملون معه هم: أهل الباطن الذين يسترونه؛ وهم حجج سليمان ولواحقه، والصافنات الجياد هم: حججه عرضوا عليه ما يجري من دعوتهم المستورة، بل الرب المذكور في قول سليمان: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص:٣٢] هو: الإمام السابق قبله الذي علَّمه!![(١)].

والعجب أن المؤلف عند ذكره لقصة زكريا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ومريم نسج من مخيلته ترتيباً للإمامة؛ وصاغ من جعبته مسلكاً غريباً في انتقال الإمامة إلى عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ؛ وأطال في ذلك بما لا طائل تحته؛ وملخصه أن عمران كان هو صاحب الزمان، ولم يتهيأ له إقامة إمام من دعوته فأقام زكريا الذي هو على غير دعوته! وضم إليه رجلاً من دعوته؛ كان قد ظن أنه يقوم بالإمامة من بعده، ولكنه لم يلق به القوة؛ لذلك ضمه إلى زكريا، وهو الذي كنى الله عنه بمريم! وهي أم عيسى من الناحية التربوية، وأحد حجج زكريا، ولما لم يلق زكريا في حجته القوة الكافية لاستلام الإمامة، أقام إماماً له وهو يحيى، إلا أن المادة الإلهية اتصلت بذلك اللاحق المسمى (مريم) من غير أن يعلم زكريا ويحيى، وأن حجته المسمى (مريم) لا يزال في حده القديم من حدود اللواحق؛ إذ لم يكن له من البيان ما يؤديه إلى حد الإمامة، وبقي في درجته، واتصلت به الحدود العلوية من قبل الله... ثم بشرته الملائكة بأنه يدعو

---

(١) انظر: (ص ٢٥٣-٢٦٧).

رجلاً يستجيب له يعلو شأنه، ويكون نبياً ناطقاً بشريعة من بعده، فتكون النبوة من نسل دعوته...

وهكذا يمضي المؤلف بتأويل قصة البشارة لمريم عليها السلام من الملائكة الكرام، وما جرى من قصة حملها ووضعها بتأويلات لا ينقضي منها العجب!! همُّه أن يرسخ عقيدة تسلسل الإمامة وانتقالها من شخص لآخر، وفق المعتقد الإسماعيلي، وتجرأ على إنكار القصة وإبطالها، وأن اللاحق (مريم) وهو من الدور الموسوي قام بتربية وإعداد عيسى، الذي جهر بالإمامة والنبوة بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٣١] وأن الله تعالى أوصاه بإقامة الدعوة ونصب الأساس...[١].

ثم يصور المؤلف انتقال الإمامة إلى محمد ﷺ؛ فيذكر أن دور عيسى انتهى قبل ظهور السابع، وهذه التي تسمى -في نظر المؤلف- الفترة؛ حيث بعث محمد ﷺ على فترة من الرسل! وأن المؤمنين هم الذين اعتقدوا وحدة الباري سبحانه، وأقروا بالرسول وأساسه، والإمام وحجته...فتكون الأمة في (الفترة) غير منفكة عن الطاعة!! وأن الله تعالى لما ابتعث محمداً اتصل به لواحق المتمِّ في دور عيسى، وكشفوا له ما عندهم، وسلموا إليه...!![٢].

---

(١) انظر: (ص ٢٩١-٣١٠).

(٢) انظر: (ص ٣١٩-٣٢٠) وقارن مع: كتاب (سرائر أسرار النطقاء) لجعفر اليمن (ص ٢٢٩ وما بعدها) ففيه تصريح أكثر جرأة.

وتوسع المؤلف في موضع آخر من كتابه فذكر أن الذي استخلفه متمّ عيسى قد اتصل بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام لما انتهى أمره وأوقفه على صنعته ونعته، وأطلعه على أمره، وأخذ ميثاقه، وأدى إليه هو ولواحق المتمّ الذي استخلفهم وأسبابه، ويزيد المؤلف في نسجه هذا الخيالَ فيقول: «وكان ذلك المستخلف أعجمياً...»[(١)]. والعجيب أنه يستدل على أسطورته هذه بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] مع أنّ الآية واضحة وضوح الشمس أنها سيقت للإنكار الشديد على من قال إن محمداً كان قد أخذ علم ما يخبِر به عن بعض البشر.

وهنا يصل المؤلف إلى بغيته عبر التأويل الباطني فيقول: إن سنة الله تعالى اقتضت أن الرسول الناطق يقيم أساساً له من أقرب الناس إليه؛ ممن استجاب لدعوته، وامتحنه، ورضي عنه؛ وكان الأساس هو ابن عمه: علي بن أبي طالب، وأن الرسول تعجل في بيان ذلك؛ وهو سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]، فعلم أن البيان لا يكون إلا من قِبل الله بمن يأمر الرسول أن يقيمه! هكذا يريد المؤلف أن يصل إلى تقرير عقيدة الوصية لعلي؛ وأنها كانت من لدن الله عَزَّوَجَلَّ... ثم يؤكد أن النبي ﷺ خص علياً بالوصية وألقى عليه من العلم والحكمة ما لا يحتمله غيره...فعلي الوصي، وبعده سبعة أئمة من ذريته؛ هم -حسب تأويل

---

(١) (ص ٣٣٠).

المؤلف- المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧] والسابع هو القائم الذي يجمع الله له أمر العباد! وإن تعجب فعجب قوله إن القرآن العظيم؛ هو: علي.! بل إن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [النحل:٩٥] يعني: أن الله كفى نبيه الذين استهزؤا بإقامة أساسه الذي هو: علي، وعزّاه بهذه الآية إذ ضاق صدره من صدهم عمن أقامه...![1]، وقوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ [الشرح:٧]؛ أي: انصب أساسك الذي أقمته، وقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٢٥]؛ أي: ادع إلى أساسك الذي نصبته وأقمته بأمر ربك! وعليٌ هو: الصراط المستقيم، والفتح المبين، وبه تمام النعمة، وحصول المنة[2].

ثم جعل المؤلف يؤول آيات لا يحتملها هذا الموضع مؤكداً أنها تدل على الأئمة من ذرية الوصيّ علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ ومن ذلك تأويله لقوله سبحانه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ... ﴾ [الفتح:٢٩] الآية؛ فالذين معه هم: الأئمة من ذريته، وكل الصفات الواردة في الآية صفاتهم، وهم الشهداء والصديقون، وهم جند الله في أرضه...، وأوّل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥] أن الشاهد هو: الرسول ﷺ في عصره، وإمام كل زمان من بعده يكون في تلك المرتبة شاهداً على أهل زمانه، و(مبشراً) : الأساس في عصر الرسول، والحجة في عصر الإمام في تلك المرتبة، و(النذير): اللاحق من الحجج في كل جزيرة؛ كل

---

(١) (ص ٣٣٠-٣٣٦).

(٢) (ص ٣٤٩) قارن مع: رسالة الإيضاح، لعلي بن الوليد (ص١٤٩).

واحد منهم في هذه المرتبة، ينذر أهل جزيرته بمن يقيمه فيها من الدعاة من عذاب الله لمن يتخلف عن الاستجابة إليها... و(الداعي): الذي يطلق له الدعوة صاحب كل جزيرة؛ وهم الدعاة، وكل واحد منهم في هذه المرتبة. و(السراج المنير) هو: المأذون الذي يطلقه الداعي ليكسر له من يرى كسره، ويبين له السبيل إليه. وهؤلاء هم الحدود الخمسة السفلية؛ التي أمر الله نصبها في الأرض لعباده[1]. وهكذا خلع المؤلف الصفات المحمدية الواردة في الآية وجعلها دالةً -بالتأويل الباطني- على الأئمة من ذريته.

وأول المؤلف قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٧٢] بقوله: «يعني: في حق الإمام وليكم، وهذه كانت سبيلَ أمة محمد ﷺ في وصيه وأساسه علي»[2].

وبهذا يتبين مما تقدم أن المؤلف لم يألُ جهداً في تأويل آيات القرآن الكريم تأويلاً باطنياً؛ ليصل بذلك إلى تأكيد ما قرره في أول هذا الكتاب من أن الإمامة هي أصل الدين وقطب رحاه، وأن كل ما ساقه من الآيات دال على هذا الأصل الأصيل والركن العظيم.!!

فإذا كانت الإمامة بهذه المنزلة العظيمة من حيث التأييد الإلهي كما يصوره المؤلف في هذا الكتاب؛ فما الصلة بين الإمامة والنبوة؟ هذا ما يمكن للمبحث التالي أن يجيب عنه.

---

(١) انظر: (ص ٣٤٠-٣٥١).

(٢) (ص ٢٤٣). وقارن ما تقدم في إثبات الوصية عند الإسماعيلية مع: المصابيح في إثبات الإمامة للكرماني ص١٠٩.

المبحث الثاني
بين النبوة والإمامة

إن القارئ للتأويلات الباطنية لآيات القرآن في هذا الكتاب لا يستطيع أن يهتدي إلى التمييز بين النبوة والإمامة، ولا أن يقف على الفرق بينهما؛ لكن المؤلف لم يصرح بالتساوي بينهما؛ بل أكد أن حد الإمامة دون حد النبوة[١]، ويقول في غير هذا الكتاب: «درجة النبوة أعلى وأجل، وفوق درجة الإمامة، وفضل الأنبياء أعظم من فضل الأئمة»[٢]. ويقول: «لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن أولياء الله الدافعون إمامتهم الزاعمون أنهم يعلمون غيب الله وما تخفي صدور عباد الله الذي تفرد بعلم ذلك دون خلقه...وذلك لاستخبار الأئمة عما غاب عنهم»[٣]، وما أنكره المؤلف من أن الأئمة لا يعلمون الغيب لا يسعفه مع ما ذكره في كتابه هذا من عبارات وتأويلات تؤكد أن علم الإمامة لا يمكن أن ينفصل عن علم النبوة؛ بل علم الإمامة إنما هو امتداد للنبوة؛ كما سيظهر فيما يلي من كلام المؤلف.

وأنبه هنا إلى أمر في غاية الأهمية وهو أن إنكار المؤلف على من زعم أن الأئمة يعلمون الغيب لا يكفي في توضيح الفارق بين النبي والإمام؛ وذلك

---

(١) انظر: (ص ٥٢).

(٢) الهمة في آداب أتباع الأئمة (ص ٢٣).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٠).

لأن المنكرين لنظرية الإمامة أصلاً لا يقولون إن النبي يعلم الغيب! بل لا يعلم من الغيب إلا ما أوحى الله إليه به؛ وقد جاء التصريح بذلك في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقوله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وحينئذٍ يقال: إن كان الإمام والحجة يعلمان ما علمه النبي ﷺ، ويُكشف لهما من الحجب ما يُكشف له، فكيف لنا أن نفرق بين ما للأئمة وما للنبي؟ ولهذا الإشكال الكبير حاول المؤلف أن يختلق فرقاً فيقول: «لم يطلق اسم النبوة إلا لمن اتصلت به المادة العلوية من غير توسط حد سفلي بينه وبينها»[١]، فالنبي إذاً يأخذ عن الحدود العلوية بلا توسط، أما الإمام فإنه يأخذ عن الحدود العلوية بواسطة حد سفلي! وهنا يتبين بأن النتيجة واحدة وإن اختلف الطريق الموصل إليها، ولذا تأتي عبارات المؤلف مشعرةً بتلافي الفرق بين درجة النبوة والإمامة؛ حتى إنه ذكر في بعضها أن اسم الإمام يقع على الناطق، واسم الناطق يقع على الإمام؛ وإنما سمي الإمام ناطقاً لأنه ينطق بما كان الرسول الناطق ينطق به في دوره من ظاهر الشريعة التي بعث بها، وسمي إماماً لأن العباد تقتدي به...[٢].

ولم يستطع المؤلف أن يخفي ما يعتقده من اتصال الإمام بالتأييد

(١) (ص ٥٠) وقارن مع: إثبات النبوة، لأبي يعقوب السجستاني (ص٦٧ وما بعدها).
(٢) (ص ٥٠) وقارن مع: الافتخار، لأبي يعقوب السجستاني (ص٧٠).

الإلهي؛ الذي لم يجرؤ على تسميته: وحيًا؛ فيؤكد أن الإمام تتصل به مادة الله!! وأولياء الله يؤيدون بالعلم والحكمة على ما يصلح لكل واحد منهم...! والاتصال الإلهي ليس للإمام فحسب؛ بل اللواحق والدعاة يحملون عن الإمام ما يلقيه إليهم من مجمل الحكمة؛ فيريحونه من تعب الفكر والجوارح في بيان ذلك وشرحه[١] بل إن التأييد قد يتم بلا واسطة كما وقع ذلك -بزعم المؤلف- للاحق المسمى (مريم)، حيث اتصلت به المادة من قبل الله؛ فتجلى له الملك يأمره عن الله أن يأخذ العهد على عيسى؛ فاستراب ذلك اللاحق (مريم) من هذا الأمر؛ لأن ذلك لا يحل للمتصل به أن يسمعه؛ لأنه ليس من حده؛ ولذا قال له الملك: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٩] أي: إني أنشأتك بالتأييد بلا توسط إمام! فأيقن ذلك اللاحق بالأمر وعرف عيسى؛ فدعاه، فاستجاب له؛ وأخذ عليه العهد، وأقبل على تربيته بالعلم والحكمة[٢].

ومع إقرار المؤلف بختم النبوة[٣] وهو الأمر الذي لا يستطيع إنكاره؛ إلا أنه يؤكد في غير ما موضع من كتابه أن الأئمة مؤيدون بمادة الله التي لا تنقطع؛ فالناطق يؤدي إلى أساسه، والأساس يؤدي إلى حدوده؛ ومن الحدود إلى المستجيبين على اختلاف مراتبهم ومقادير ما لكل واحد

---

(١) انظر: (ص ٢٧٧).

(٢) انظر: (ص ٣٠٠-٣٠٦).

(٣) انظر: (ص ٣٢٨).

منهم(١). وقول الله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١] أي: لنطلعه على الحدود العلوية، ونصب بإزائها حدوداً سفلية؛ فأفضى الرسول من ذلك العلم الذي أوتيه إلى أساسه -وهو علي- بما يجب أن يفضي به إليه، وعلمه إياه، ثم عهد إليه أن يؤدي من ذلك إلى من يفضي إليه بسره، ويقيمه بعده مما يجب لمثله، وأن ينقله كذلك من واحد إلى واحد...(٢). ويصف المؤلف الأئمة بأنهم: «حبل الله المتصل؛ طرفه بيد الله، وطرفه بيد العباد...والرسول هو أول حد من الحبل في العالم السفلي، والأساس متصل به؛ والأئمة يتصلون بالأساس واحداً بعد واحدٍ، والطرف الأدنى الذي هو بيد العباد إمام كل زمان في زمانه، فمن تمسك به فقد تمسك بحبل الله، وكل واحد منهم في زمانه هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، كالسلسلة؛ كل عروة منها متصلة بالأخرى، فمن تمسك بأدناها فقد تمسك بها كلها...»(٣).

فالختم إذاً إنما هو للنبوة، أما التأييد الإلهي، والعلم الروحاني فدائم لا ينقطع...(٤).

۞ اتصال الأئمة بالعالم الروحاني:

ويذكر المؤلف كلاماً خطيراً يتعلق باتصال الأئمة بالعالم الروحاني؛

---

(١) انظر: (ص ٣٥٥).

(٢) انظر: (ص ٣٤٠).

(٣) (ص ٣٤٥) وقارن مع: إثبات النبوات، للسجستاني (ص٨٥ وما بعدها).

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة، كوربان (ص ٩١ وما بعدها).

فيقول: إن النبي ﷺ أقام حدوده في الباطن، وجرد سيف التأويل، واتصل بالحدود العلوية؛ وهو عالم العقل الرباني، عالم اللذة والبقاء...! وأقام أساسه من دونه على مقابلة التالي في عالم النفس، وبالتالي تظهر كلمة السابق في عالم النفس الروحاني، وبنور عالم البقاء واللذة يعيشون ولا يموتون؛ لأن موادهم من بقاء؛ هو: العقل الكلي[1] بواسطة التالي في عالم النفس الروحاني، وكذلك في عالم التركيب لا يصل أحد من الجسمانيين إلى معرفة حقائق ممثولات الشريعة ورموزها، ومحكم تأويل ذلك إلا دعوة الأساس الباطنة، التي هي على مقابلة العالم الروحاني، ومنها يرقى إلى عالم النفس الروحاني، فكان الناطق (محمد) مثلاً على العقل الكلي في عالم الترتيب، والأساس (علي) مثلاً على النفس الكلية الناطق بحكمة التأويل...والإمام نتاج بين الناطق والأساس...وعلي يظهر فضائل الناطق ويكشف رموزه وممثولاته في ظاهر تنزيله وشريعته...

ولما غاب الناطق (محمد) وارتقى إلى العالم الروحاني ارتقى أساسه (علي) إلى درجته، وورث منزلته! فأقام نفسه مقام السابق، وأقام الإمام

---

(١) «ما يقوله المسلمون عن الله خلعه الإسماعيلية على العقل الكلي؛ فهو الإله عند الإسماعيلية...والعقل الكلي في العالم العلوي يقابله الإمام في العالم الجسماني» طائفة الإسماعيلية، محمد كامل حسين (ص ١٥٨)، ولما كان المذهب الإسماعيلي ذا صبغة فلسفية يونانية؛ فقد جعل (العقل الكلي) أحد العقول العشرة؛ التي يؤمن بها الإسماعيلية، ولها مثل وممثول وتفاصيل تجدها في: راحة العقل، للكرماني (١٢٧-١٢٩).

المستودع دونه مقام التالي في عالم النفس، ولما غاب الأساس ارتقى المتمُّ إلى درجة الأساسية، وأقام الإمامَ، ودلَّ عليه، وسلم إليه ما كان له في يده من الوديعة من مواريث الأنبياء والأئمة، وغاب المتمُّ وارتقى الإمام إلى منزلة الناطق! وقابل منزلة السابق؛ فكان هو عقل جميع ما في عالم التركيب، وأقام الحجة من دونه بالبيان عنه على مقابلة التالي في عالم النفس، وأقام الحجة صاحب جزيرة الدعوة من دونه...فلا يصل أحد إلى حكمة التنزيل والشريعة إلا من جهة الوصي (علي)، وتأول المؤلف قول الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨] أنّهم الأئمّة... الذين لا يُعرَفُ ما جاء به الرسولُ ورمزه إليه وستره إلا عن طريقهم... ويقول المؤلف -أيضـًا-: إن حكمة الله محفوظة مكنونة في بيوته، وأفضل بيوته (محمد) وأفضل أبواب بيوته هو أساسه (علي) فأخبر بمضمرات القلوب؛ وهو المخبر عن محجوبات الغيوب... و(الكتاب) المذكور في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] هو: الأساس (علي) الذي كُتب فيه بيان تأويل الشريعة وممثولاتها المكنونة المستورة؛ والمطهرون هم: الأئمة من ذرية (علي)...[1].

وهكذا يؤكد المؤلف أن باطن الشريعة مستور لا يعلمه إلا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والأئمة من ذريته؛ وهم في المعتقد الإسماعيلي: الحسن بن علي أول المتمين في دور محمد ﷺ، والقائم بالإمامة بعد الوصية، والحسين، ويأتي

---

(١) انظر: (ص ٢٦٢-٢٦٨).

بعدهما المتم الثالث وهو: زين العابدين علي بن الحسين، والمتم الرابع: الباقر محمد بن علي، ثم الصادق جعفر بن محمد، والمتم السادس: إسماعيل بن جعفر، وهو صاحب الفترة بالاستتار، وقائم الدور السابع: محمد بن إسماعيل...هؤلاء الأئمة السبعة، وعلي؛ عندهم هو: الوصي والأساس(١) وعلم حقائق الشريعة ومكنوناتها عندهم. يقول ابن حيون: «علم الناطق الحقيقي الذي هو التأويل الباطني المبيِّن للتنزيل الظاهر هو عند الأساس، وعنه ينتقل إلى الأئمة، ويضع ذلك كل إمام في حجته»(٢).

ويا ليت المؤلف اختصر الطريق فأخبرنا بأن الأئمة يوحى إليهم كما يوحى إلى الأنبياء؛ فعباراته هذه وغيرها تجعل منزلة الأئمة مساوية لمنزلة الأنبياء تماماً؛ وها هو يقول: «أنبياء الله وأولياؤهم كلماته؛ بهم خاطب خلقه، وبهم أبان لهم مراده»(٣)، ولم يستطيع المؤلف أن يراوغ في عقيدته بامتداد الوحي إلى الأئمة في موضع آخر من كتبه؛ حيث يقول: «...إذا لحق الناطق بعالمه سكنت مواده، وصار التأييد لأساسه من التالي بواسطة الجد والفتح والخيال، فإذا لحق الأساس بعالمه قام الإمام مقام الناطق، وأيدته الحدود العلوية الكروبية، وأقام حجته مقام الأساس...»، ثم ذكر بأن الناطق

---

(١) انظر: تحفة المستجيبين، للسجستاني الإسماعيلي (ص ١٧) والكافية، لمحمد بن سعد الرفنة الإسماعيلي (ص ٢٨)، والأصول والأحكام، لحاتم ابن زهرة الإسماعيلي (ص ١٢٤) ورسالة الأسابيع، لقيس بن منصور الإسماعيلي(ص١٧٢).

(٢) (ص ٢٤٤).

(٣) (ص ٢٩٧).

إذا وفى دوره فإنه يودع أساسه معاني ما نصب من شريعته، فيكون مستودعه، فإذا لحق الناطق بعالمه ظهرت المنزلة في أساسه فينطق بالتأويل[١].

وإذا كانت الإمامة مطلوبةً في الباطن؛ في حين أن نبوة الرسول (المشرع) مطلوبةٌ في الظاهر -وللباطن الصدارة على الظاهر على ما سيأتي بيانه في الفصل الثاني- فالنتيجة الحتمية لذلك هي: أن الإمام مقدم على النبي!![٢].

بل إن عبارات المؤلف في هذا الكتاب المؤسس على التأويل الباطني تؤكد صحة ما ذهب إليه الدكتور/ محمد كامل حسين -مع تعاطفه تجاه الإسماعيلية- حين قال بعد دراسته لهذا المذهب الباطني دراسة واسعة: «الإسماعيلية جعلوا للأئمة صفاتٍ لم تعرفها فرق الشيعة الأخرى، وهي صفات باطنية؛ بحيث أصبح الأئمة عندهم في مرتبةٍ لا تمت إلى البشرية بصلة؛ بالرغم من إلحاح كتاب الإسماعيلية في القول بأن الأئمة من البشر...»[٣]، ويقول أيضـاً: «العقل الكلي في العالم العلوي يقابله الإمام في العالم الجسماني؛ فكل الأسماء والصفات للعقل الكلي هي -أيضـاً- صفات وأسماء للإمام...، فالإمام إذاً هو الواحد الأحد الفرد الصمد...، وهكذا أخذ الشعراء يمدحون أئمتهم بهذه الصفات الباطنية التي لم يقل بها سواهم...، وهذه الصفات التي سبغوها على الأئمة، والتي جعلته مثلاً

(١) انظر: الرسالة المذهبة، لابن حيون (ص٥٢) وفيها طامات.

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة، هنري كوربان (ص ٩٣-٩٤).

(٣) طائفة الإسماعيلية، محمد كامل حسين (ص ١٥٦).

للعقل الكلي لا يصرحون بها للعامة والمبتدئين...»[١].

فالنزعة الباطنية عند الإسماعيلية تتضمن في جوهرها علم نبوة وعلم إمامة، وبقاء الوسيط الذي يُظهر علم النبوة أمر ضروري، وهو المشار إليه في الفكر الإسماعيلي بمصطلح (حجة)، ولا ينحصر في حقبة زمانية، فحضوره يجب أن يكون مستمراً، حتى ولو كان حضوراً غير منظور، أو مجهولاً من العامة، وتتضمن فكرة (الحجة) عدم انفصال علم النبوة عن علم الإمامة[٢].

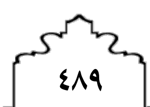
وإذْ قد تبين ما للإمامة من منزلة عظيمة عند الإسماعيلية من خلال كتاب الأساس لابن حيون؛ وتبين كذلك أنها لا تقل عن منزلة النبوة؛ إن لم تتفوق عليها! فيبقى أن نبين مفهوم التأويل الباطني وعلاقته بالظاهر ودور الإمام فيه؛ وذلك في الفصل التالي.



---

(١) المصدر السابق (ص ١٥٩-١٦٠).

(٢) تاريخ الفلسفة، هنري كوربان (ص ٨٦-٨٨).



الفصل الثاني
التأويل الباطني ودور الإمام

المبحث الأول
أهمية التأويل الباطني

يأخذ (التأويل الباطني) لدى الإسماعيلية بصفة عامة، ولدى الداعي الإسماعيلي: النعمان بن حيون منزلةً عظيمة، ومكانة عالية؛ ولذا صنف كتابه: (أساس التأويل) الذي يعدُّ من أخطر كتب الإسماعيلية التي تمثل الباطنية المحضة في تأويل آيات القرآن الكريم.

وقد أكد ابن حيون في أول هذا الكتاب على قاعدة من قواعد العقائد الإسماعيلية في قوله: «إنه لا بد لكل محسوس ظاهر وباطن، فظاهره ما تقع عليه الحواس، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بأنه فيه...»[١]، ويزعم أن ذلك من سنة الله في كونِ كل موجودٍ لا بد له من زوج؛ ليتبين بذلك وحدة الباري سبحانه البائن عن خلقه...! ويستدل على ذلك بقول الله سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، ثم يوضح ذلك في خلق الإنسان؛ ويقول: إن شخص الإنسان واحد؛ إلا أنه جسد وروح، فالجسد هو الظاهر، والروح هي الباطن، ثم يذكر أمثلة لذلك[٢].

---

(١) (ص ٢٨).

(٢) انظر: (ص ٢٨ وما بعدها) وقارن مع: رسالة المبدأ والمعاد، للحسين بن الوليد (ص١٢١).

۞ التأويل الباطني يحقق التوحيد!:

ومما يبرز أهمية التأويل الباطني عند الإسماعيلية أن المؤلف يرى أن العبد لن ينال توحيد الله تعالى إلا من جهة الباطن! معللاً ذلك بأن «طلب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بلا تأويل لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يصير إلى التشبيه، أو يخرج إلى التعطيل إذا نفاه من التشبيه بريبة ومبلغ علمه بلا تأويل»(١)، ومراده أن من أجرى النص الدال على وصف الله تعالى بصفات الكمال على ظاهره؛ وقع في التشبيه، ومن تأوله برأيه وقع في التعطيل؛ لأنه لم يأخذ بالتأويل الباطني للنص وفق المفهوم الإسماعيلي. ولذا يقول مؤكداً هذا المعنى: إن من تركوا التأويل «أخرجهم إلى تشبيه الباري جل ذكره بخلقه، وإلى استعمال آرائهم وقياسهم وأهوائهم في دين الله، وتحريم ما أحله والكذب على رسول الله، وتحريف التأويل بآرائهم إلى ما زينته لهم عقولهم، وهذا سبيل العامة كلهم». أما من أخذ بالتأويل الباطني فهو الذي «وحد الله حق توحيده، ونفى عنه تشبيه المشبهين، وعلم حقيقة ما تعبد به عباده مما أحله لهم وحرمه عليهم، وعلم الصحيح من السقيم من الأخبار عن رسول الله، وغير ذلك مما اختلف فيه الناس؛ لأن يوضح ذلك ويبينه، وهو عياره وميزانه والشاهد عليه وله»(٢).

ويؤكد المؤلف أهمية التأويل الباطني، ومكانته في الفكر الإسماعيلي،

---

(١) (ص ٩٩).

(٢) (ص ٢٣٠) قارن مع: سمط الحقائق، لابن حنظلة (ص٣٣).

ويضفي عليه وصفًا عاليًا؛ فيقول: إنه «أحسن الحديث وأفضل العلوم»، وإن الله أمر موسى بأن يأمر قومه بالأخذ به، وهو الذي عناه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر:٢٣] وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥][(١)].

والتأويل الباطني في نظر ابن حيون «به تثبت الحجة على من أنكر أحكام الشريعة وطعن في ظاهر تُعُبِّدَ أهلُها به من أهل الملل والزنادقة وغيرهم؛ الطاعنين في شريعة الإسلام»[(٢)].

هكذا وبهذه العبارات الصارمة يؤكد المؤلف أهمية التأويل الباطني للنص القرآني، بل ولفهم الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ؛ وهو أصل عظيم لا يمكن أن يصح إيمان عبد فيكون من المستجيبين للدعوة إلا إذا أخذ به وأذعن له.

والحاجة إلى التأويل الباطني -بحسب المؤلف- لا تقتصر على فهم حقيقة القرآن وحقيقة أخبار الرسول؛ بل حتى التوراة والإنجيل فيهما «مثلما في القرآن من الأمثال والإشارات والرموز والظاهر المُحتاج إلى التأويل؛ الذي هو العلم المخزون»[(٣)].

والعجيب أن المؤلف لِهَوَسِه بالتأويل الباطني انتقد -في معرض ذكره

---

(١) (ص٢٣٠).

(٢) (ص ٢٢٩).

(٣) (ص ٦٩).

قصصَ الأنبياء- ما أسماه بـ(تأويل العامة)، فإذا نقل من تفاسيرهم شيئًا فإنه يختار ما ذكره بعضهم من أخبار بني إسرائيل التي لا يُشَكّ في ثبوتها؛ كما فعل ذلك في ذكره القصةَ المختلقةَ من أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ تعلق بامرأة أحد قادته فأراد أن يتزوجها...! وهي قصة يبطلها علماء أهل السنة، ومن ذكرها من المفسرين فللتنبيه على بطلانها[١]، والعجب أن ابن حيون لفتنته وتعلقه بمبدأ التأويل الباطني جعل يؤول تلك القصص الأسطورية تأويلاً يدل على تسليمه بثبوتها، كما في قصة داود، وقصة سليمان مع ملكة سبأ وغيرهما.!![٢].

ولخطورة التأويل وأهميته البالغة في الدين الإسماعيلي يؤكد المؤلف في تأويله الباطني للشهادتين على أن (الحشوية) وهم من سوى الإسماعيلية من المسلمين! لم يكملوا الشهادة، فكانت غير مقبولة منهم؛ وذلك لأنهم أقروا بالأنبياء بلا معرفة صحيحة، ولم يقروا بالأئمة وما جاؤوا به من علم الباطن، فهؤلاء -في نظر ابن حيون- لا تنفعهم شهادتهم إلا بحقن دمائهم، وعصمة أموالهم فحسب، ولن تنجيهم في الآخرة[٣]، ويقول عند تأويله قصةَ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٨٧) تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠، وتفسير القرطبي (١٥/ ١٧٦) دار إحياء التراث،١٤٠٥، وتفسير ابن كثير (٤/ ٣١) دار المعرفة،١٤٠٠هـ.

(٢) انظر: (ص ٢٥٦) و (ص ٢٧٣)

(٣) انظر: (ص٤٢).

[هود:٤٨]: «يعني: الداخلين في ظاهر الدعوة غير المعتصمين بباطنها، أي: سيمتعهم بظاهرهم في عاجلهم، بما يحقن دماءهم، ويصون به أموالهم؛ إلا بحقها، ويدفع عنهم من صَغَار الجزية ومذلتها، ثم يمسهم في آجلهم عذاب أليم، لتخلفهم عن حقائق الإيمان، ونقضهم العهد والميثاق، وإيمانهم بالغيب، وإقامة الظاهر دون الباطن، وعدمهم التأييد بالحكمة، والعلم المكنون الروحاني المصون»[١].

المبحث الثاني
بين الباطن والظاهر، ودور الإمام

ذكر المؤلف في كتابه (أساس التأويل) أنه لم يقصد من تأليفه له ذكر (تأويل العامة)، ويعني به: ما يعرفه المسلمون بمصطلح (تفسير القرآن) وكل ما صنفه المسلمون في تفسير القرآن الكريم عبر القرون، فإن تفاسيرهم لا تتعدى -في نظره- علم الظاهر، وهو تأويل بمحض الرأي؛ لأنه لم يُؤخذ عن مصدره، والظاهر لا يعدو أن يكون مثلاً يراد به الباطن[٢].

والمؤلف لم يستطع إنكار الظاهر؛ فقد أقر به لكنه يعتقد أن لكل ظاهر باطناً يخالفه، وما من شيء من الأشياء إلا وله باطن وظاهر، فهو إذاً لا يلغي الظاهر؛ بل يجعله مثلاً مضروباً لممثولٍ باطن، وهذه تسمى نظرية (المثل

(١) (ص٨٧).

(٢) انظر: (ص١١٣-١١٤).

والممثول)[١] وهي التي اختص بها الفكر الإسماعيلي، وأجمع عليها علماء الإسماعيلية، وهي التي بنى عليها ابن حيون كتابه الأساس.

فالظاهر علامة رمزية على الباطن، وهو -أعني الظاهر- مهمة الرسل من النطقاء، فالرسول ينطق بالظاهر، فاختص الأنبياء بتأدية الظاهر، كما اختص الأئمة بالباطن، وبالنسبة للنص القرآني؛ فإن ظاهره أداه الرسول محمد ﷺ، وجعل باطنه إلى الأئمة! يقول ابن حيون: «لا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب إلا محمدٌ، ولا يستطيع أحد أن يأتي بباطنه إلا الأئمة من ذريته»[٢].

ومن هنا فإن الفكر الإسماعيلي يعطي مهمة التفسير بالظاهر للناطق، ومهمة التأويل الباطني للإمام، فالناطق يمثل الشريعة والأحكام الظاهرة، والإمام يمثل الحقيقة، وعلم الباطن.

ويرى المؤلف أن التأويل الباطني لا يلغي الظاهر ولا يبطله، ثم يقرر قاعدة مفادها: أنه لا يقوم ظاهر إلا بباطن، ولا باطن إلا بظاهر[٣]، ويقول: إنه لا يمكن الأخذ بالظاهر دون الباطن؛ فهما متزاوجان كتزاوج الروح والبدن، فالجسد هو الظاهر، والروح هي الباطن، وهكذا كل ما في العالم لا بد له من الازدواج! ويرى كذلك أن كل آية في القرآن لها ظاهر وباطن،

---

(١) سيأتي تفصيلها في المبحث التالي.

(٢) (ص٤٠).

(٣) انظر: (ص٦٠).

ويروي في ذلك الحديث الذي تنسبه الإسماعيلية إلى النبي ﷺ؛ أنه قال: «ما نزلت عليَّ من القرآن آيةٌ إلا ولها ظهر وبطن»[١]، ويرى المؤلف أن من معجزات القرآن وغرائب تأليفه «أنه يأتي بالشيء الواحد وله معنى في ظاهره، ومعنى في باطنه»[٢].

والظاهر والباطن يعتبرهما ابن حيون أصلين لشريعة كل واحد من أولي العزم من الرسل، أصل في الظاهر وأصل في الباطن، «فأصل نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ السفينة...، وأصل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الكعبة...، وأصل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العصا...، وأصل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الصليب...، وأصل محمد ﷺ شهادة ألا إله إلا الله»[٣]، ثم يبين أن ظواهر هذه الأصول مختلفةٌ، لكن باطنها واحد، اشتمل على حدود الشريعة جميعها، وما تعبد الله به أمته التي بُعث إليها ذلك الرسول، فالأصل الظاهر والإقرار به مطلوب...[٤]، ثم أخذ ابن حيون

---

(١) (ص٢٩) قد رُوي نحوه في بعض كتب السنة بلفظ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف؛ لكل آية ظهر وبطن...»، كما أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه (ح٧٥) والطبراني (١٠١٠٧) وأبو يعلى (ح٥٤٠٣) وأوله إلى قوله: (أحرف) مخرج في الصحيحين، أما بقية الحديث فضعيف، انظر تفصيل ذلك في السلسلة الضعيفة للألباني (برقم٢٩٨٩)، وقد ذكر بعض أهل العلم أن معناه على فرض صحته: أن الظهر منها ما يظهر من معناها، والبطن منها ما يبطن من معناها...انظر: شرح مشكل الآثار، للطحاوي (٨/ ٨٧) مؤسسة الرسالة،١٤١٥هـ. وتفسير البغوي (١/ ٦٨) دار إحياء التراث١٤٢٠هـ.

(٢) (ص٣١).

(٣) (ص٣٣).

(٤) انظر: (ص٣٤).

يقرر أن الإقرار بأصل الشهادة في الظاهر لا ينفع صاحبه حتى يقر بالباطن وفق المفهوم الإسماعيلي بطبيعة الحال، الذي يجعل علم الباطن حكراً على (الحجة)، ولذا أول المؤلف أصل الشهادة بما يتوافق مع مذهبه الباطني.

فالحاصل أن الإقرار بظواهر النصوص -في نظر المؤلف- لا ينفع صاحبه حتى يقر ببواطنها، بل يؤكد أن الأخذ بالظاهر يوقع في الكفر؛ ومن ذلك أن الأخذ بظواهر نصوص الصفات يُفضي إلى التشبيه؛ يقول ابن حيون: «من طلب معرفة الله بلا تأويل وقع في التشبيه»[1].

ويرى أن الظاهر فتنة، فيقول في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ [الأعراف:١٣٦]؛ أي: في البحر، وهو: مثلٌ للظاهر؛ أي: أغرقناهم في فتنة الظاهر»[2].

ويؤكد المؤلف أن الأمثال المضروبة في القرآن، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم:٥٨] ليست من سبيل الظاهر والباطن؛ لأن المثل والممثول لا يكونان مفروضين ثابتين، بل إنما يكون الثابت والمفروض (الممثول) كالمثل، نظير قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] فالصراط في اللغة: الطريق، فمثل الإمام هاهنا بالطريق؛ لأن من لزم الطريق لن يضل، وكذلك من لزم الإمام لن يضل،

---

(١) (ص٩٩).

(٢) (ص١٠٨) وقارن مع: الفرق بين الفرق، للبغدادي (ص٢٩٤).

والمراد بالطريق هنا الإمام لا الطريق المسلوك في الأرض[١].

وإذا كان الظاهر لا يدل على المعنى المراد، ولا يمكن الأخذ به دون العلم بالباطن، فأين دور العقل إذاً في فهم كلام الله تعالى؟ إن دور العقل والحالة هذه يكون لاغياً بلا شك، ولا يجوز الاعتماد عليه! إذْ كيف له أن يصل إلى معرفة الباطن؟ وإذْ كان العقل عاجزاً عن معرفة التأويل الباطني فمن الضروري أن يعتمد على مصدر العلم الباطني، وهو: الإمام أو الحجة، فهذا المصدر الوحيد لمعرفته.

۞ نظرية المثل والممثول:

ويقرر ابن حيون في كتابه هذا كله بطريقة تطبيقية (نظرية المثل والممثول)، فالظاهر: مثلٌ، والباطن: ممثول[٢]، وعلى هذا يُبنى الأصل الإسماعيلي العظيم؛ وهو: (التأويل الباطني)، وليس هذا في المعاني والصفات فحسب؛ بل حتى في المحسوسات، فالظاهر من العبادات الدينية التي وردت في القرآن من الصلاة والزكاة والحج وغيرها -مما يفهمه عامة المسلمين- لها تأويل باطني، ولما كانت معرفة الإمام وحجته أهم الفرائض وأصل الأصول؛ وجعل (الآيات) المذكورة في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ

---

(١) انظر: (ص٦١).

(٢) انظر: كشف أسرار الباطنية، للحمادي (ص٢٣ وما بعدها)، والحركات الباطنية في العالم الإسلامي، للخطيب (ص٨٩)، والمدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن الشافعي (ص٨٩).

ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ ﴾ [فصلت:٥٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات:٢٠]، أمثالاً للأئمة والحجج، والسماء مثلٌ؛ وممثولها: صاحب الزمان؛ ناطقـًا كان أو إمامـًا، والأرض مثلٌ؛ وممثوله: الحجة! فمن السماء ينزل الماء الذي هو مثل للعلم = فكذلك يصير العلم من الناطق إلى الإمام، والشمس مثلٌ؛ وممثولها: الناطق، والقمر مثلٌ؛ وممثوله: الحجة! وكما أن القمر يستمد نوره من الشمس فكذلك الحجة يستمد علمه من الإمام...[1].

وقد مرّ كثير من النماذج التي تُقرر هذه النظرية، وأن الظاهر إنما هو مثل لممثول مستفاد من العلم المخزون لدى الأئمة...، فالصراط مثَل للإمام، والذبح مثَل لأخذ العهد والميثاق، وناقة صالح مثل للحجة، وذكور الإبل أمثال الأئمة، وإناثها أمثال الحجج... إلى آخر ما ذكره المؤلف[2].

وتأول ابن حيون قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ [الشرح:٥] أي: مع التنزيل الظاهر بيانٌ باطن يوضحه وييسره لمن عسُر عليه، وإن مع الدعوة الظاهرة دعوةٌ باطنة فيها بيان وتيسير[3]، ويؤكد أن كل من خالف دعوة الأساس (علي) الباطنة وأقام على الظاهر بغير الباطن فهو في ظاهر العذاب[4].

---

(١) انظر: (ص٤٣).

(٢) راجع المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث.

(٣) انظر: (ص٣٤٨).

(٤) انظر: (ص٣٦٥).

۞ دور الإمام في التأويل الباطني:

لاشك أن دور الأئمة في التأويل الباطني دور عظيم فهم -بحسب المعتقد الإسماعيلي- مصدره ومنبعه، ولذا يقرر ابن حيون في كتابه هذا أن تأويل ما أنزل الله من القرآن الكريم، ومعرفة حقيقة ما به تعبد عباده، وباطن التنزيل الذي أخبر الله عنه في كتابه؛ لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم من أوليائه؛ وهم الأئمة[١]، وهم أولياء الله وكلماته؛ بهم خاطب خلقه وبهم أبان لهم مراده!!.

وعلم الباطن معجزة للأئمة؛ يقول المؤلف: «من معجزات القرآن أنه يأتي بالشيء الواحد وله معنى في ظاهره ومعنى في باطنه؛ فجعل عَزَّوَجَلَّ ظاهره معجزةَ رسوله، وباطنه معجزةَ الأئمة من أهل بيته، لا يوجد إلا عندهم، ولا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب إلا محمد، ولا يستطيع أحد أن يأتي بباطنه إلا الأئمة من ذريته»[٢].

ويؤكد المؤلف على الصورة القدسية التي يتصف بها التأويل الباطني؛ وأنه لا يمكن لأحد من الجسمانيين أن يصل إلى معرفة حقائق وممثولات الشريعة ورموزها ومحكمها إلا عن طريق الإمام، فهو الذي بيده مواريث الأنبياء، فإذا غاب الناطق (الرسول) ارتقى (الأساس) إلى منزلته، وأقام

---

(١) انظر: (ص٧٤) وقارن مع: تاج العقائد ومعدن الفوائد، علي بن الوليد (ص٨٩ وص١١٣ وما بعدها).

(٢) (ص٣١ و ص٤٠) وقارن مع: ديوان المؤيد (ص٨٨).

(الحجة) من دونه بالبيان، وأقام الحجةُ الداعيَ من دونه...وهكذا بلا انقطاع، فالإسماعيلية تعتقد أن التأويل الباطني مأخوذ من مصدر موثوق يعتبر (ممثول العقل الكلي)(١).

وبين المؤلف في غير ما موضع في كتابه أن الظاهر للناطق، والباطن للأساس، «كل واحد منهما مقدَّر على الأمر الذي جُعل له لا يتعداه إلى غيره، فالتقليدي للرسول، والبيان للحجة»(٢).

ويرى المؤلف أن العلم الباطني يجري من قبل الناطق إلى الأساس، ولا يستقر فيه بل يجري منه إلى الأتمَّاء وهم الأئمة، ولا يستقر فيهم بل يجري إلى الحجج، وأيضاً إلى النقباء الذين هم اللواحق، ثم إلى الأجنحة الذين هم الدعاة، ثم إلى المستجيبين...(٣)، ويقول: إنه «قضت سنة الله عَزَّوَجَلَّ في جميع من أرسله من رسله أن يكون الرسول الناطق يقوم بظاهر الشريعة والتنزيل، ويُقيم أساساً من أقرب الناس إليه، فمن استجاب لدعوته وامتحنه ورضي عنه للقيام بالباطن والتأويل...»(٤).

وليس للناطق أن يتجاوز حدَّه الذي أبيح له في البيان إلى حدِّ صاحب القيامة؛ وهو الذي حظره الله على آدم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ

(١) انظر: (ص٣٦٢) وانظر أيضاً: (ص٢٤٤ و ص٣٦٢).
(٢) (ص٩٢) وراجع أيضاً (ص٢٦٨).
(٣) وانظر: في تفسير هذه المصطلحات: الأسس، الحجج، اللواحق، النقباء، الدعاة، المأذونون وغيرها: تحفة المستجيبين، للسجستاني الإسماعيلي (ص ١٧ وما بعدها).
(٤) (ص٣٣٣) وقارن مع: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص٢٩٦).

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥]، فالشجرة في التأويل الباطني: مثلٌ لحدِّ قائم الزمان الذي هو صاحب القيامة، والذي يكون التكليف في حده مرفوعـًا، وهو الحدُّ الذي زينه إبليس لآدم وحواء وقال لهما: إن حد العمل بالفرائض هو حد التعب والنصب، ولو تركتماه لصرتما في حد الملائكة الروحانيين اللطيف، وتجردتما من العالم الجسماني الكثيف، ولكنتما ملكين خالدين فيما تشتهيان...![(١)].

وعلم الباطن الذي اختُصّ به الأئمة لا يقتصر على تأويل القرآن الكريم؛ بل إن إقامة التوراة والإنجيل التي أمر الله أهل الكتاب بها في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] لا تكونُ إلّا بالتأويل الذي أودعه الله آدم، ونقله في النطقاء والأسس والأئمة ولواحقهم من ذريتهم...[(٢)].

۞ متى يسقط الظاهر؟

يرى المؤلف أن الظاهر يسقط حينما يقوم الإمام قائم الزمان صاحب القيامة؛ فـ«يتجرد حينئذٍ الباطن، ويكون الباطن ظاهراً على خلاف ما هو في حدود الرسل قبل ذلك؛ لأنه في حدودهم مدفوع إلى حججهم، مستور عندهم، محمول من واحد إلى واحد، وهو معجزة لهم، وعلم يُستضاء به حتى يصل إلى صاحبه؛ أي: صاحب القيامة، فيظهر ويجرده، وذلك محظور

(١) انظر: (ص٦٠-٦٦).

(٢) انظر: (ص٦٩).

ممنوع قبله، فمنع الله عَزَّوَجَلَّ آدم في ابتداء الأمر من ذلك؛ لتجري سنة الله التي لا تبديل لها عليه، وسأل إبليس إنظاره إلى يوم الوقت المعلوم، وعنى باليوم: صاحب الزمان»[١].

وهكذا نرى أن المؤلف أوّل كل الآيات القرآنية التي ذكرها في كتابه على رسم الإمامة وتفاصيلها، وَفق مذهبه الإسماعيلي الباطني، ولا يتورع في تأويل كل كلمة أو لفظة لنصرة فكرته الباطنية، التي تدور حول الإمامة وجوداً وعدماً، وكل ما فيه ذكر للمؤمنين فهم أهل الدعوة المستجيبون للأئمة، وكل ما فيه ذكر للكفر أو التكذيب أو الشرك أو الظلم فهي صفات لمن ترك اتباع الأئمة، وسفينة نوح وقرية لوط وغيرهما ترمز إلى الدعوة.

۞ خطورة التأويل الباطني وغاياته:

إن كتاب (أساس التأويل) للداعي ابن حيون ليجسد صورة واضحة لما وصل إليه الفكر الإسماعيلي من جرأة كبيرة على التأويل لآيات القرآن وتجهيل للأمة، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين لا يستطيع أحدٌ أن يقف على تأويله مهما بلغت معرفته بلغة العرب، بل حتى رسول الله ﷺ، إنما «يؤدي الظاهر بلا بيان»[٢]، فنظرية التأويل الباطني نظرية فلسفية ابتدعها الإسماعيليون لأغراض يأتي في مقدمتها هدم دين الإسلام، وذلك بتحريف مصدره وأساسه وهو القرآن الكريم.

---

(١) (ص٦٥).

(٢) أساس التأويل (ص ٣٤٨).

وقد ذكر البغدادي والغزالي وابن الجوزي وابن تيمية[1] وغيرهم من علماء المسلمين قدراً من تأويلات الإسماعيلية الباطنية لآيات القرآن، وما في كتاب (أساس التأويل) لابن حيون أشد وأعظم مما نقلوه؛ وهذا ما جعل أكثر العلماء يرى أن «غرض الباطنية الدعوةُ إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة»[2]، ولما ذكر ابن حزم (ت٤٥٦هـ) الإسماعيلية والقرامطة؛ قال: «هما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملةً، قائلتان بالمجوسية المحضة»[3].

فإذا كان القرآن الكريم محفوظًا ولا يستطيع أحد أن يحرف لفظًا من ألفاظه، بل ولا حرفًا واحداً من حروفه؛ فليس على من أراد إضلال الناس وإبعادهم عنه إلا أن يحرف معانيه، وهو الأمر الذي حمل لواءه الإسماعيلية بما ابتدعوه من التأويل الباطني الذي لا يعلمه إلا الأئمة بزعمهم، وهذا ما أشار إليه أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) في فضحه لمذاهب الباطنية بقوله: إنهم «لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة؛ صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطالَ معاني الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذَ انقيادهم للمبايعة والموالاة، وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٩٣)، وفضائح الباطنية للغزالي (ص٥٩)، وتلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٩٥)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٥/ ٣٨٣).

(٢) الفرق بين الفرق، للبغدادي (ص٢٩٣).

(٣) الفصل في الملل والنحل (٢/ ٩١).

يحظوا بموالاة الموالين، وكانوا أول المقصودين المقتولين»، ثم ذكر شيئًا من تأويلاتهم على نحو ما ذكره ابن حيون في كتابه الأساس[١]. وقال ابن القيم (ت٧٥١هـ): «إن الطاعن في حصول العلم بمعاني القرآن شر من الطاعن في حصول العلم بألفاظه»، ثم ذكر أن مذهب الباطنية شر من مذهب الرافضة[٢].

فغرض الإسماعيلية من التأويل الباطني يظهر بجلاء لكل مطلع على كتبهم التأويلية الباطنية، خاصة كتابَ الأساس الذي بين أيدينا، وهو الذي صرح به محمد كامل حسين بقوله: «والذي يظهر لي من التأويل الباطن في كل أدوار الإسماعيلية أنه وُضع لخدمة غرض واحد فقط؛ وهو إغداق صفات التمجيد والتفخيم على الأئمة وعلى الدعوة الإسماعيلية، بحيث سهل علينا أن نؤول على نحو ما كانوا يؤولون، فكل فضيلة وردت في القرآن أو في الأحاديث النبوية تؤول على أنها الإمام؛ لأنهم قالوا: إن القرآن الكريم نفسه تأويله: الإمام، والأهلة هم: الأئمة...، والطاغوت والأصنام والشياطين هم أعداء الأئمة، وهكذا كان تأويلهم الباطن»[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسماعيلية باعتقادهم بنظرية التأويل الباطني قد أبطلوا النظر العقلي، وأوجبوا التعلم عن المعصوم، ولذا يقول

---

(١) فضائح الباطنية (ص٥٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٦٣٨).

(٣) طائفة الإسماعيلية (ص١٦٦)، وقد أكفرهم الديلمي؛ لغلوهم العظيم في أئمتهم! انظر: بيان بطلان الباطنية (ص٧٧).

أبو حامد الغزالي: إنهم يلقبون بـ(التعليمية)؛ «لأن مبدأ مذهبهم إبطالُ الرأي والعقل، والتعلم من الإمام المعصوم، وتنزيله في وجوب التصديق والاقتداء منزلة رسول الله ﷺ»(١).

واعتقاد الإسماعيلية أن تأويل القرآن لا يمكن إدراكه إلا عن طريق الإمام المعصوم هو ما جعل أبا حامد الغزالي يصل إلى نتيجة أجملها بقوله: «أما الجملة؛ فهو أنه مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض؛ ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم، وعزل العقول عن أن تكون مدركةً للحق لما يعتريها من الشبهات ويتطرق إلى النظار من الاختلافات، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستبصر، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع إلى الحق، ويكشف عن المشكلات، وأن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم يُرجع إليه فيما يُستبهم من أمور الدين»(٢).

هذا وقد ذكر هؤلاء العلماء وغيرهم أن الإسماعيلية قد ركَّبوا تأويلاتهم الباطنية لآيات القرآن وأخبار الرسول عليه الصلاة والسلام من مذاهب فلسفية منحرفة، وملل خارجة عن ملة الإسلام، وأن الطائفة الإسماعيلية تأثرت بشكل واضح بتلك المذاهب والملل؛ ولذا قال ابن تيمية

---

(١) فضائح الباطنية (ص٢٩) وقارن مع: إثبات الإمامة، للنيسابوري (ص٥٧) وانظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص٩٥).

(٢) فضائح الباطنية (ص٤٣)، وانظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/ ٢٣٦).

(ت٧٢٨هـ) فيهم: «وغايتهم أن يكونوا فلاسفةً على مذهب أرسطو وأمثاله، أو مجوسًا، وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس، ويظهرون التشيع نفاقًا»[١]، وقال أبو المظفر الإسفراييني (ت٤٧١هـ): «وذكر أهل التواريخ أن الذين وضعوا دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس؛ وكان ميلهم إلى دين أسلافهم، ولكنهم لم يقدروا على إظهاره مخافة سيوف المسلمين...»[٢]، وأشار عبدالكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ) إلى أن الباطنية قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على منهجهم[٣]، وقال الديلمي (ت٧١١هـ): «قلت أنا: لا شك أن مذهبهم لا يوافق إلا مذهب المجوس فقط، والمجوس هم إخوان الصفا[٤] وأهل الود والولاء؛ لأن العقيدة واحدة، والأفعال متعاضدة على مخالفة الشرع الشريف، والأصل متفق عليه...»[٥]، وقال عبدالقاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ): «والذي يصح عندي أنهم دهرية زنادقة»[٦]، وذكر أحد علماء اليمن ممن عاش في

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٥/ ١٦٢ و ١٢/ ٣٥٣) ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٤/ ٣٤)، وانظر: كشف أسرار الباطنية، للحمادي (ص٣٢).

(٢) التبصير في الدين (ص١٤٢).

(٣) الملل والنحل (١/ ١٩٢).

(٤) هم: جماعة سرية باطنية، تأثرت بالمذهب الأفلاطوني الحديث، تهدف إلى الخلط بين العقائد، وتجعل التشيع والتصوف ستاراً لها، لهم رسائل مشهورة باسم: رسائل إخوان الصفا، صدرت أولى طبعاته في الهند سنة١٨١٢م.

(٥) بيان بطلان مذهب الباطنية (ص ٨٢)

(٦) الفرق بين الفرق (ص٢٩٤)

القرن الخامس الهجري شيئاً مما حوته كتبهم من تأويلات ومخازٍ ستروها عن الناس، وبالغوا في كتمانها وإخفائها؛ قال: فيجتهد بعض من اغتر بهم للكشف عنها فيقع في شَرَكها؛ وقال: «إني خبير بهم جداً؛ لقرب الدار من الدار، ولكثرة ما قرأت من كتبهم الشنيعة، وعرفت معناها ورموزاتها المؤدية إلى تعطيل الشريعة، المؤلَّفة في الأمور الوضيعة...»، ثم سرد عدداً كبيراً من كتبهم(١)، ويقول السكسكي: إن الإسماعيلية «أكثر الفرق تشكيكاً وتلبيساً، واستدراجاً لمن أحسوا منه جهلاً وقلة معرفة في أمر الدين؛ لكنهم لا يعالجونه بشيء ينفر عنه قلبه أولاً؛ بل يأتون كل أحد من حيث هو...»(٢).

ويذكر برنارد لويس -بعد أن درس التاريخ الفكري لطائفة الإسماعيلية- أن وجهة نظر الكتاب الأقدمين مثل الغزالي والبغدادي وابن الجوزي وغيرهم تؤكد أن الإسماعيلية تمثل العقائد التي غلبها الإسلامُ لتندَسَّ فيه فتقضي عليه، أو تحلّ محلَّه إما بشكلها القديم أو بشكل إلحاديٍّ خالص، ويتبين هذا بالسعي لجعل موجدي الإسماعيلية زرادشتيين ومانوية وديصانية...(٣)، هذا ما عبر به هذا المستشرق؛ من أن أولئك العلماء سعوا لجعل موجدي الإسماعيلية كما ذكر، وفي نظري أن العلماء لم يسعوا لهذا من عند أنفسهم؛ بل إنهم لما اطلعوا على أقوال الإسماعيلية وما احتوته

---

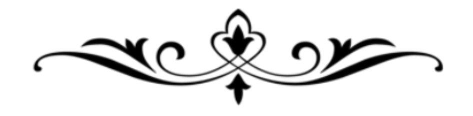
(١) عقائد الثلاث وسبعين فرقة، لأبي محمد اليمني (٢/ ٢١٣-٢١٤)، وهو كتاب نفيس فيه نقض لمذاهب الباطنية وغيرهم.

(٢) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٨٢).

(٣) أصول الإسماعيلية (ص١٤٧).



مصنفات علمائها من انحراف خطير، وتأويلات باطنية مضللة؛ أيقنوا حينئذٍ أن ذلك لا يمكن أن يصدر ممن عرف أصول الإسلام، وآمن بالقرآن، واتبع سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن تلك الأقوال المبتدعة، والتأويلات الفاسدة لا يمكن أن تصدر إلا عن غير المسلمين؛ بل من قوم حاقدين على الإسلام وأهله.



الخاتمة

بعد أن أخذت مني هذه الدراسة جهداً كبيراً ووقتًا طويلاً؛ أسجل في ختامها أبرز ما توصلت إليه من نتائج؛ وهي:

- تبين من خلال الدراسة التطبيقية لكتاب (أساس التأويل) لابن حيون أن الاعتقاد الإسماعيلي في الإمامة قد أثر تأثيراً بالغـًا في التأويل الباطني، وهو المحرك الأساس لنظرية التأويل.

- أن القرآن من أوله إلى آخره -في اعتقاد مؤلف كتاب الأساس- دال على الإمامة؛ بل القرآن في التأويل الباطني هو الإمام. وكل فضيلة وردت في القرآن فهي للأئمة وأتباعهم المستجيبين للدعوة الإسماعيلية، وكل ما ذُكر فيه من شرك وكفر وطغيان وشياطين فالمراد بهم أعداء الأئمة.

- لا يمكن فهم النص القرآني إلا بطريق الداعي المرتبط بالتأييد الإلهي؛ فيجب على الأتباع أن يلغوا عقولهم تمامـًا، ولا ينفعهم سماع القرآن شيئـًا؛ لأن الظاهر الذي يستمعون إليه لا فائدة منه إلا بالباطن المستور عند أهله المؤيدين من لدن الله.

- أن المطلع على كتاب (أساس التأويل) محلِّ الدراسة يوقن أن الإسماعيلية قد بالغوا في التأويل الباطني أشد المبالغة، وتجاوزوا في ذلك سائر الفرق التي تدعي التشيع من إمامية وزيدية ونحوهما؛ فهؤلاء تأولوا بعض الآيات للتدليل على أصل الإمامة، في حين أن الإسماعيلية تأولوا سائر آيات القرآن على رسم الإمامة. وتأويلهم لا يقف عند حدّ، خاصة هذا

المؤلف ابن حيون؛ فقد أسرف في التأويل الباطني في كتابه (أساس التأويل)، وجمع فيه كلَّ ما ذكره في عامة كتبه من تأويلاتٍ باطنيةٍ؛ مما جعل عدداً ممن ترجم له يصفه بالزندقة والانسلاخ من الدين، كالحافظ الذهبي وابن العماد وغيرهما(١).

- أتى الإسماعيلية في تأويلاتهم الباطنية للقرآن للدلالة على الإمامة بما تضحك منه العقول السليمة؛ وتشمئز منه النفوس المستقيمة؛ لا سيما في ضرب الأمثلة؛ كقول ابن حيون بأن الله تعالى ضرب في القرآن مثل أساسِ إبراهيم بالكبش، وأساس موسى بالبقر، وأساس محمد بالبعير(٢) وتأول: ناقة صالح، وامرأة إبراهيم، ومريم، وأم موسى، ودابة الأرض، وملكة سبأ وغيرها كثير بأنها أمثال للحجج!! والساعة والقيامة مثل للإمام قائم يوم القيامة.

- لم يكتف مؤلف الأساس بتأويل آيات القرآن؛ بل إنه لما ذكر البشارات بالنبي محمد ﷺ من التوراة والإنجيل أخذ يؤولها على النسق الإسماعيلي، بما يضحك منه العقلاء.

- زعم ابن حيون في كتابه الأساس أن لكل شيء ظاهراً وباطنًا، وكذلك القرآن ما من آية فيه إلا ولها ظهر وبطن، فالظاهر من علوم العامة،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٦/ ١٥٠)، وشذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي (٣/ ٤٧)

(٢) أساس التأويل (ص٣٤٧).

والباطن لا يعلمه إلا الأئمة، والرسول صاحب الظاهر، والإمام إليه الباطن.

• يرى المؤلف أن الظاهر (الشريعة والأحكام) يسقط حينما يقوم الإمام قائم الزمان صاحب القيامة، فحينئذٍ يتجرد الباطن، ويكون الباطن ظاهراً.

• صرح المؤلف في كتابه هذا بالمعتقد الإسماعيلي الخطير؛ وهو أن قائم الزمان هو صاحب القيامة، الذي يكون التكليف في حده مرفوعـًا! وهو الذي يُجرِّد الباطن ويظهره! وذلك ممنوع على الرسل من قبله! وهذا يعني -بوضوح تام- أن قائم الزمان أفضل ممن قبله من الرسل وأعظم!!

• إن كتاب (أساس التأويل) تضمَّن بعض الطوامّ، مع أن مؤلفه رسمه لأجل تأويل آيات القرآن، وجعل موضوعه في التأويل الباطني على المعتقد الإسماعيلي، من ذلك أنه أشار إلى أن عليـًا لما أعلن النبي ولايته وإمامته؛ حسده من حسده؛ كما حسد إبليسُ آدم؛ ثم قال: «وتبع إبليسَ كثيرٌ من الملائكة»!![1]، وقال أيضـًا : «فأقام الأساسُ [أي: عليـًا] عليهم [أي: على الصحابة] الحجّةَ بالقرآن الذي نزل على محمد لما جمعه وجاءهم به، فقالوا: حسبنا ما معنا من كتاب الله، ولا حاجة لنا إلى ما معك، فأخذه وانصرف عنهم»[2]!! وهو بذلك يذكِّر بالقصة الرافضية الإمامية المختلقة،

---

(١) (ص ٣٥٩).

(٢) (ص ٣٦١) وهذه القصة الرافضية المختلقة تتردد كثيراً في كتب الإسماعيلية؛ انظر: تاج العقائد، لعلي بن الوليد (ص٨٠).

وأن القرآن الذي بين أيدينا اليوم ليس هو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ.

- وأخيراً أؤكد أن أحداً لن يستطيع أن يحرف القرآن ويبدل معانيه مثل ما فعل ابن حيون في كتابه الأساس، وأن هذا الكتاب من أخطر كتب الباطن وأكثرها غنوصيةً، وجرأةً على كتاب الله، الأمر الذي تأنف منه نفس كل مؤمن بكتاب الله تعالى، بل يأنف منه كل عقل سليم.



المصادر

❑ مصادر إسماعيلية:

١. إثبات الإمامة، أحمد بن إبراهيم النيسابوري، تحقيق: مصطفى غالب، د.ط. بيروت: دار الأندلس،١٩٩٦.

٢. أساس التأويل، ابن حيون النعمان بن محمد المغربي، تحقيق: عارف تامر، د.ط. بيروت: دار الثقافة، د.ت.

٣. تاج العقائد ومعدن الفوائد، علي بن الوليد، تحقيق: عارف تامر، ط٢، بيروت: مؤسسة عز الدين، ١٤٠٣هـ.

٤. تأويل الدعائم، ابن حيون النعمان بن محمد المغربي، ط١، بيروت: مؤسسة الأعلى، ٢٠٠٦م.

٥. تحفة المستجيبين، للسجستاني، مطبوع ضمن كتاب: ثلاث رسائل إسماعيلية، تحقيق: عارف تامر، نشر: دار الآفاق، بيروت، ١٩٨٣.

٦. دعائم الإسلام، ابن حيون النعمان بن محمد المغربي، تحقيق: آصف علي أصغر، د.ط. مصر: دار المعارف، د.ت.

٧. ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق: محمد كامل حسين، د.ط. مصر: دار الكتاب المصري، ١٩٤٩م.

٨. الذخيرة في الحقيقة، علي بن الوليد اليماني، تحقيق: محمد حسن الأعظمي، د.ط. بيروت: دار الثقافة،١٩٧١.

٩. رسالة الأسابيع، الداعي/ قيس بن منصور، مطبوعة ضمن مجموع

فيه خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق: عارف تامر، د.ط. سوريا، دار الإنصاف، ١٣٧٥.

١٠. رسالة الأصول والأحكام، حاتم بن عمران بن زهرة، مطبوعة ضمن مجموع فيه خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق: عارف تامر، د.ط. سوريا، دار الإنصاف، ١٣٧٥.

١١. الرسالة المذهبة، ابن حيون النعمان بن محمد المغربي، مطبوعة ضمن مجموع فيه خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق: عارف تامر، د.ط. سوريا، دار الإنصاف، ١٣٧٥.

١٢. سرائر وأسرار النطقاء، جعفر بن منصور اليمن، تحقيق: مصطفى غالب، ط١، بيروت: دار الأندلس،١٤٠٤هـ.

١٣. المصابيح في إثبات الإمامة، الكرماني حميد الدين أحمد، تحقيق: مصطفى غالب، ط١، بيروت: دار المنتظر، ١٤١٦هـ.

١٤. الهمة في آداب أتباع الأئمة، ابن حيون النعمان بن محمد المغربي، تحقيق: مصطفى غالب، د.ط. بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٧٩م.

❑ مصادر أخرى:

١٥. اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفاء، المقريزي أحمد بن علي، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط٢، مصر: وزارة الأوفاف المصرية، ١٤١٦هـ.

١٦. أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة، برنارد لويس، ترجمة:

خليل أحمد، ط١، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٠م.

١٧. أصول الإسماعيلية، سليمان بن عبدالله السلومي، ط١، الرياض: دار الفضيلة، ٢٠٠٢م.

١٨. الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي، ط٥، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

١٩. البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، عباس بن منصور السكسكي، تحقيق: بسام العموش، ط١، الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٨هـ.

٢٠. بيان مذهب الباطنية وبطلانه، محمد بن الحسن الزيدي الديلمي، عني به: ر. شتر وطمان، د.ط. الرياض: مكتبة المعارف، د.ت.

٢١. تاريخ الفلسفة منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد، هنري كربان، ترجمة: نصير مروة وآخرين، ط٢، بيروت: عويدات للنشر، ١٩٩٨م.

٢٢. التبصير في الدين، أبو المظفر طاهر بن محمد الإسفراييني، تحقيق: كمال الحوت، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

٢٣. تلبيس إبليس، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، ط١، بيروت: دار الفكر، ١٤٢١هـ.

٢٤. الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، محمد أحمد الخطيب، ط٢، الأردن: مكتبة الأقصى، ١٤٠٦هـ.

٢٥. درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط١، الرياض: دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١هـ.

٢٦. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب

الأرناؤوط، ط٩، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ.

٢٧. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق: علي الدخيل الله، ط٣، الرياض: دار العاصمة، ١٤١٨هـ.

٢٨. طائفة الإسماعيلية، محمد كامل حسين، ط١، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

٢٩. طبقات أعلام الشيعة، آغا بزرك الطهراني، تحقيق: علي تقي، د.ط. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٠هـ.

٣٠. عقائد الثلاث والسبعين فرقة، أبو محمد اليمني، تحقيق: محمد الغامدي، ط١، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٤هـ.

٣١. الفرق بين الفرق، أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي، ط٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.

٣٢. الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم، تحقيق: عبدالرحمن عميرة وآخر، د.ط. بيروت: دار الجيل، د.ت.

٣٣. فضائح الباطنية، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، اعتنى به: محمد علي قطب، د.ط. بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠١م.

٣٤. القاضي النعمان مؤلف وفقيه فاطمي، آصف علي أصغر، مجلة الجمعية الملكية الآسيوية: لندن، عدد: يناير، ١٩٣٤م.

٣٥. كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وكيفية مذهبهم وبيان اعتقادهم، محمد بن مالك اليماني الحمادي، تحقيق: محمد الخشت، د.ط. الرياض: مكتبة الساعي، د.ت.

٣٦. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز، ط٣، بيروت: دار الوفاء، ١٤٢٦هـ.

٣٧. المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشافعي، ط٢، كراتشي: إدارة القرآن، ٢٠٠١م.

٣٨. الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، د.ط. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٤هـ.

٣٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، د.ط. بيروت: دار صادر، ١٩٠٠هـ.



فهرس الموضوعات